

رواية
إيان ريد
أفكر في إنهاء الأمور
ترجمة : أميرة الوصيف
١١٩٠
مكتبة
صفحة

I'm Thinking Of Ending Things

Iain Reid

مكتبة | 1190

أفكر في إنهاء الأمور

تأليف

إيان ريد

ترجمة: أميرة الوصيف





الكتاب

أفكر في إنهاء الأمور

المؤلف

إيان ريد

الطبعة الأولى :2021

الترقيم الدولي

978-603-91498-9

رقم الإيداع

1442/3528



E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية



«حين تستبد بالمرء فكرة إنهاء الأمور، فإنها لا تفارقه، بل تلتصق به وتهيمن عليه، ولا يكون متاحاً القيام بشيء في هذا الخصوص، فهي لن تفارقه».



أفكّرُ في إنهاء الأمور.

تغمرني هذه الفكرة بمجرد وصولها. تتشبّثُ بي وتسري في روحي، تحتلّني، تقتلني، تسيطر عليّ بصورة غريبة، ومزعجة، ما يؤلمني أنّه ليس بيدي حيلة.

صدقني! تلك الفكرة لا تغادرني أبداً.

تلك الفكرة لا تتوقف عن محاصرتي بغضّ النظر عن أني أحبّها أو أكرهها. تحاصرني وأنا أتناول طعامي، تحاصرني عندما أخلد إلى فراشي، لا تنفك عن ملاحقتي في أثناء نومي، أو حتى عندما أستيقظ في الصباح، تلك الفكرة لا تتركني، هي معي دائماً، في كلّ وقت، وفي كلّ مكان.

لم أكن أفكر فيها من قبلُ، تلك الفكرة جديدة، ولكنّها في الآنِ نفسهِ، تبدو كأنها قديمة.

متى بدأت تلك الفكرة في الدّوران حولي؟ هل هي أساساً ناتجة عن تصوّري الخاصّ أم أنّ أحدهم قام بالزّجِّ بها في رأسي؟ هل تمّت إعادةُ تطوير تلكَ الفكرة؟ هل كونها فكرة غير مُعلنة وصامتة، كفيل بأن يجعلها فكرة مُزيّفة وغير حقيقيّة؟ ربّما اعتدتُ على وجودها طيلة حياتي وربّما تلكَ هي طريقتها في الولادةِ وطريقتها في الموت.

قال جاك ذات مرة إنّ الفكرة تبدو أحيانًا أكثر قربًا من الحقيقة واقعا أو فعلا، بمعنى قُل ما تشاء، وافعل ما تشاء، ولكن لا يمكنك أبداً أن تزيّفَ فكرة.

لا يمكنك أبداً تزييف فكرة!، وهذا ما أفكر فيه الآن.

يقلقني الأمر، يزعجني للغاية، من المفترض أن أعرف كيف كانت النهاية المُقررة لنا، ربّما كتبت النّهاية منذُ البداية.

الطريق خالٍ تقريبًا ويخيّمُ عليهِ الهدوء، أكثر هدوءًا مما توقعتُ. ثمّة الكثير لتراه، ولكن ليس هناك أناس كثيرون، وليس هناك مبانٍ أو منازلُ كثيرةٌ، ليس هناك إلا الأشجار، والسموات، والحقول، والأسيجة والطريق بكتفيه المكسوّتينِ بالحصى.

- هل تريدين أن نتوقف من أجل شرب القهوة؟

- لا.. لا أريد، قلتُ لجاك.

تلك هي فرصتنا الأخيرة قبل أن نصل إلى المزرعة، ويصبح كلّ شيء مرتبطا بها فجأة.

نحن في طريقنا لزيارة والدي جاك، تلك هي المرة الأولى التي سألتقيهما فيها، جاك هو حبيبي.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على ارتباطنا، هذهِ هي المرة الأولى التي نذهب فيها في رحلة طويلة معاً، لذلك من الغريب للغاية أن أشعر بالحنين إلى علاقتنا، إليهِ، وإلينا معًا. من المفترض أن أكون متلهّفة، أتوق إلى الأشياء الجديدة التي سنقضيها معاً، والأيام التي ستجمعنا معاً، ولكني لا أشعر بذلك، ولا يغمرني الشوق على الإطلاق.

– لا أريد أن أشرب أو أتناول أيّ شيء، أرغب في أن أكون جائعة عندما يحين وقت العشاء، قلت لجاك.

– لا أعتقد أن عشاء اليوم سيكون نموذجيًا، فأمّي ما زالت مريضة.

– ألا تعتقد أنّها ستنزعجُ من قدومي معك؟

– لا بالعكس، ستكونُ ودودة. إنّها امرأة سعيدة. أهلي كذلكَ يرغبون في رؤيتك.

– عدد الحظائر الموجودة على الطريق كبير للغاية.

عدد الحظائر التي رأيتها هنا على هذا الطريق، أكبر بكثير من عدد الحظائر التي رأيتها طيلة حياتي، الخرفان، والأحصنة، والأبقار، والسّماء الواسعة الرحبة.

– ألا يوجد أعمدة إنارة في هذه الطرق السريعة؟

- لا، من المؤكد أنكِ لاحظتِ غياب اللافتات المرورية التي تحثّ على إنارة الطريق.

- من المؤكد أن تلك الطرق تغرق في الظلام ليلاً؟

- أجل.

يبدو الأمر كأني أعرف جاك منذُ وقتٍ طويل، هل أعرفه منذ شهر؟ أعرفه منذ ستّة أسابيع؟ ربّما سبعة أسابيع؟ يجب أن أعرفَ الإجابة، إذا سألوني سأقول إنّني أعرفه منذ سبعة أسابيع، نحن بالفعل نتواعد، ومتعلّقان ببعضنا بعضا تعلّقًا شديدًا نادرًا ما يحدث، كما أنّني لم أختبر شعوراً كهذا من قبلُ.

نظرت إلى جاك، وأنا أقوم بتعديل وضعية جلوسي، مقتربةً منه أكثر.

- إذن ماذا أخبرتهم عنّي؟

- والديّ؟ لقد أخبرتهما بما يكفي. قالَ جاك وهو ينظر إليّ نظرة خاطفة.

أحبُّ تلك النظرة التي يرمقني بها، أنا منجذبة إليه بشكل غير عادي.

- ما الذي قلت لهما عني؟

- قلت لهما إنّني التقيت فتاة جميلة للغاية.

- والداي لا يعرفان حتى مَن تكون. قلتُ لجاك.

يعتقد جاك أنّني أمزح معه، ولكنّي كنت أتحدّث بجدية. والداي بالفعل ليس لديهما أدنى فكرة عن وجود شخص اسمه «جاك» لا يعرفان حتى أنني أواعد أحدًا.

ساد الصّمت وقتًا، ظللتُ أفكّرُ في إذا كانَ يمكنني أن أقول شيئًا، ولكنّني لم أقل شيئاً، رغم أنه كان لديّ العديد من الفرص، للتحدث، إلا أنني لم أكن أشعر بالرغبة في الحديث.

بدا أنّ جاك على وشك أن يفتتح موضوعاً لنتحدّث عنه، ولكنه تراجع فجأة.

مَدّ جاك يده، وقام بتشغيل الراديو، الموسيقى الوحيدة التي استطعنا إيجادها بعد وقت من البحث، والتنقيب، هي الموسيقى الريفية، تمايل جاك مع الموسيقى وأخذ يدندن مع الأغنية بنعومة.

- لم أسمعك تدندن من قبلُ، رغم أن صوتك عذب، قلتُ لجاك.

لا أعتقد أنني سأخبر والديّ بخصوص جاك، لن أخبرهما الآن، ولن أخبرهما لاحقاً أيضاً، طافت تلك الفكرة حولي، ونحن نعبر طريقًا سريعةً، ومهجورة متّجهين إلى مزرعة عائلة جاك. مجرد التفكير في ذلك يجعلني أشعر بالحزن الشديد.

أشعر بأنّني أنانيّة ومغرورة. من المفترض أن أخبر جاك بكل ما أفكر فيه الآن، ولكني أشعر أيضا باستحالة أن أتحدث معه عن ذلك الأمر، بمجرد ظهور تلك الشكوك في داخلي، تلكَ الشّكوكُ

التي لا أستطيع التخلّي عنها.

لقد قرّرت ذلك بشكل أو بآخر، أصبحت على يقين بأني في الطّريق لإنهاء علاقتي معه، هذا القرار يخفّف عنّي العبء عندما ألتقي والديه، لديّ فضول لأن أعرف كيف يبدوان؟ إلا أن الشعور بالذنب يغمرني الآن.

أعرف أن مسألة قدومي معه وزيارة مزرعة أهله إشارة قوية على جدّيّتي في علاقتي معه، وها هو الآن جالساً بجواري وعلى وجهه تلك النظرة العاشقة، ليس لديه أي فكرة عما أنوي القيام به، أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً على الإطلاق، أنا لا أرغب في أن أتركَ جرحًا داخلَهُ.

- كيف عرفت هذه الأغنية يا جاك؟ وهل سبق لنا أن استمعنا لها سوياً من قبل؟

- هذه أغنية ريفية. من الطّبيعيّ أن أعرفها ما دمتُ قد نشأت في مزرعة.

لم يؤكّد لي جاك أننا استمعنا لتلك الأغنية الريفية من قبل، أيُّ نوع من إذاعات الراديو تلك التي تكرر الأغنية نفسها بشكلٍ متواتر على مدار السّاعة؟

أنا لا أستمع للراديو بشكل عام، ربما أضحت الإذاعات على الشاكلة نفسها في تلك الأيام؟ وربما تبدو كافة الأغنيات الريفية واحدة، ومُملّة بالنسبة إلي.

لماذا لا أتذكر أي شيء على الإطلاق عن آخر رحلة قمت بها؟ أنا لا أتذكر حتّى متى كانت!

أختلس النظر من النافذة، ولكني لا أنظر إلى شيء على الإطلاق، أنا أحاول فقط تمضية وقتي كما يفعل المرء في أثناء سفره بالسّيّارة، كلّ شيء يمرّ جواري بسرعة شديدة، وهذا أمرٌ سيء للغاية، لقد أخبرني جاك أنه قد وقع في غرام المناظر الطبيعية الرّيفية هنا، أخبرني بأنه يفتقد المكان بسبب بُعده عنه لوقت طويل، تحديداً، الحقول الخضراء، والسّماء الصّافية، أنا واثقة من المشاهد الطّبيعية هنا. إنّها في غاية الرّوعة، ولكن من الصّعب تأمّل هذا الجمال من سيارة تنطلق مسرعة على الطّريق.

مررنا بطريق مهجورة في مزرعةٍ ريفيّة، حيثُ كانَ ثمّة منزلٌ وحيثُ أخبرني جاك ونحنُ نقفُ خلفهُ أنّ حريقًا شبَّ في داخلِهِ منذُ عشرة أعوام. إضافة إلى المنزلِ، كانت هناك حظيرة متهالكة، وأرجوحة تقعُ في الباحة الأمامية، على عكسِ الأشياء الأخرى، بدت الأرجوحة جديدة كما لو أنّها لم تتأثر مطلقًا بعوامل الطّقس.

- ما هي حكاية تلك الأرجوحة؟ سألت جاك.

- ماذا؟

- هل يعيشُ أحدٌ ما هناك في تلك الحظيرة المحترقة؟

كان زجاج السيارة بارداً للغاية، كنت أريح رأسي عليه. أستطيع الشعور باهتزازات محرك السيارة من خلال الزجاج، الأمر أشبه

بالمُنوّم.

- هل تشعرين بالبرد؟ سألني.

- لا أنا بخير، أجبتهُ.

لا أريد أن أخبر جاك عن هذا الصوت الذي يسكن رأسي، لم أستطع إخباره عنه، وعن رسالته التي يردّدها دوماً.

لم أخبر جاك أيضاً بأنني أحاول تجنب الإمساك بملامحي المرتسمة على زجاج النافذة، إنه يوم بلا مرايا بالنسبة إليّ، تماماً مثل اليوم الذي التقيت فيه جاك. تلك الأفكار لا يمكنني أن أصرّح بها له، أحتفظ بها لنفسي فقط.

التقيت جاك للمرة الأولى في أثناء حفلة داخل الحرم الجامعي رغم أنني لست من النوع الذي يقضّي فيه وقتاً طويلاً ولم أكن أحرص على تناول الطعام أو شرب أية مشروبات داخله .لم أعد طالبة بعد الآن، ولكنّني في المقابل، أشعر بأنني أصبحت متقدّمة في السنّ.

لم أكن أتوقع أن ألتقي أحداً في تلك الليلة، كان معي صديقتي، كنا نشربُ، ونتحدث سوياً.

اعتقدت أن السبب وراء دعوة صديقتي لي، لحضور الحفل في تلك الليلة هو أنني ربما أتعرف إلى أحدهم خلال الحفل، هي لم تعلن ذلك، ولكني أعرف أنها كانت تفكر في ذلك، كان جاك وأصدقاؤه، يجلسون على الطاولة المجاورة لنا.

ذلك النوع من الحفلات ليس مكاني المفضّل، أنا أفضّل أن أكون في مكان أقلّ توتراً، أو أن أمكث في البيت، على الأقل سوف أشرب حينها مشروبات نظيفة، وليست ملوّثة.

فريق جاك كان اسمه «بريجنيف».. مَن هو بريجنيف؟ سألت جاك حينها. كان المكان صاخباً والفوضى تحيط بنا وكنا لا نكاد نسمع بعضنا بعضا ولهذا اقتصر حديثنا على بضع دقائق.

«هو مهندس سوفييتي يعمل في مجال الفلزات. في فترة الكساد الكبير، كان لديه دودتان كبيرتان يستخدمهما من أجل الحواجب».

هذا ما تحدثت فيه مع جاك: اسم فريقه.

كان اسم فريق جاك ساخراً، ولكن أيضاً كان الاسم غامضًا بعض الشيء، في علاقتهِ بما يعرفونهُ حولَ جوهر الحزب الشيوعي السوفييتي.

لا أعرف لماذا، ولكن هذا الشّيء قادني حينها إلى الجنون.

دائماً ما تكون أسماء الفرق هكذا في الجامعة، وإذا لم تكن هكذا فإنها تكون على هيئة أسماء تحمل إيحاءات، وإسقاطات سوقيّة واضحة.

أخبرت جاك بأنني لا أحب تلك النوعية من الحفلات، قال لي جاك إنّ هذا التفكير قد يكون منغلقًا بعض الشيء، وتفكير تغمره اللامبالاة.

في الحقيقة، جاك ليس شاباً لافتاً للنظر، ولكنّهُ يمتازُ بشخصيّة

فوضويّة جذابّة وجنونٍ من نوعٍ آخر. ربما، لم يكن الشاب الوحيد الذي شعرت بإعجاب نحوه في تلك الليلة، ولكن كان الأكثر قدرة على تسليتي حينها، رغم أنّه ليس نوعي المفضّل.

بدا جاك أنه لا يعتبر جزءاً من القطيع، وكأنه أتى هنا على غير رغبته، إلا أن فريقه يعتمد عليه اعتماداً رئيسياً رغم ذلك، وهذا تحديداً ما جذبني إليه.

جاك طويل، ونحيل، وعظام وجنتيه تبدو بارزة بعض الشيء. ولهذا، أعجبت بملامحه من النّظرة الأولى.

شعره قصير وأشعث، ولكنّهُ لا يبدو قذراً ولا يبدو نظيفاً كذلك.

كان يرتدي نظارتين بإطار فضّي اللّون، يدفعهما إلى أعلى بسبابته بين الحين والآخر.

كان يرتدي بنطال جينز، وقميصاً رمادياً، أو أزرق، يبدو قميصه قد غُسلَ مئات المرات. كان جاك يرمش كثيراً. يمكنني القول إنّه كان خجولًا، كان بإمكاننا أن نجلس معاً طيلة اللّيل، من دون أن ينطق جاك بحرف.

ابتسم لي مرة، وأنا بادلته الابتسام، لو لم أفعل ذلك، لما كنا التقينا من الأساس.

أعترف بأنه لم يكن هو مَن بدأ بالكلام، في الواقع كنت أنا.

«ما تقومون به عمل رائع بالفعل يا شباب». كانت هذه الكلمات

أول كلمات قلتها لجاك في تلك الليلة.

تناولنا المشروب معاً، ثم بدأنا نتحدث شيئاً فشيئاً.

- أنا بارع في حلّ الألغاز، والكلمات المتقاطعة، قال جاك.

أجبته دونَ أن أبدي مزيدًا من الاهتمام، قائلةً: حسناً.

أخبرني جاك بأنه يودّ أن يكون اسم فريقه الجامعي: إيستي. أنا لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، أو حتى ما الذي ترمز إليه.

لكن يمكنني خداعه، ومجاراته بأنني أفهم، رغم حذره وتحفظه الشديد في التعامل معي.

لم يكن جاك مندفعاً في حديثه معي، لم يكن يرغمني على أن يكون برفقتي، لم يستخدم معي حيلة «الكلام المعسول» واكتفى بمتعة الحديث معي بصدقٍ في كلّ ما يقولهُ. أستطيع الحكم عليه بأنّهُ لم يواعد فتياتٍ كثيرات من قبل.

في الواقع لا أعرف معنى هذه الكلمة، قلتها لجاك.

ثم انطلق كعادة الرجال، وحماستهم في شرح أي مفهوم تجد المرأة صعوبة في فهمه أو تدّعي ذلك.

- تلك الكلمة من اللاتينية القديمة، وهي كلمة مساوية للأنانية أو الفردانية.

قد يبدو هذا الجزء من حديثه نوعًا من الحذلقة أو الغرور أو مبالغة زائدة عن الحد وكأنه يلقي محاضرة، ولكن صدقني، ليس

الأمر كذلك، لم يكن جاك بتلك الشّخصية المتعجرفة، بل هو شخصية متواضعة بشكل فطريّ، جاك إنسان رقيق للغاية وليس متكلفاً على الإطلاق.

- في الحقيقة نرغب أنا وفريقي في تغيير الاسم الذي نلعب تحته، ووجدنا أن اسم فريقنا الحالي يوحي بالفردانية، ولكننا نرغب في اسم يحمل روح الجماعة، أنا آسف للغاية، يبدو كلامي تافهًا جداً ومؤكد أنك تشعرين بالملل الشديد، قالَ جاك.

ضحكنا، ونظرنا إلى بعضنا بعضا بإعجاب، كنا نشعر كأننا وحدنا في الحفل، كانَت لدى جاك روح خفيفة، ولم أكن أستطيع أن أتوقف عن الضّحك، في الحقيقة، كافّة الرجال الذين التقيتهم ليسوا كما جاك.

لا يتمتع جميع الناس بحسّ الدعابة.

- الناس الذين يستطيعون إضحاكنا نادرونَ، أليس كذلك؟ قال جاك وكأنه ينصتُ إلى أفكاري.

- لا أعرف إن كان هذا حقيقياً، أجبتهُ وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة.

يبدو حديث جاك حديث رجل واثق من نفسه، رجل معتدل وليس متطرفًا في مشاعره.

عندما أوشك جاك، وفريقه على المغادرة، كنت أتأهب لأن أسأله عن رقمه، أو أعطيه رقمي.

أردت ذلك بيأس شديد، ولكني لم أستطع، لم أكن أرغب في إجباره على الاتصال.

رغبت بيني وبين نفسي أن أراه مرة أخرى.

كنا في المدينة الجامعية، وبينما أفكر في رغبتي في لقائه ثانية، فإذا بنا نصطدم ببعضنا بعضا أثناء مغادرة الحفل، وإذا به يضع ورقة صغيرة داخل حقيبتي، لم أقرأ تلك الورقة، إلاّ بعد عودتي إلى المنزل، كتب لي فيها:

«لو أعطيتني رقم هاتفكِ، سوف نتحدث معاً، وسأحاول إضحاكك».

ابتسمت عندما قرأت ورقته، ووجدته مدوّناً رقمه في أعلاها.

- ما زلت لا أفهم، كيف يمكنُ لشيء كهذا أن يحدث؟

- جميعنا هنا في صدمة.

- لم يحدث شيء بشع كهذا من قبل.

- هذا أبشع حدث على الإطلاق.

- طيلة السّنوات التي قضّيتها في العمل هنا، لم أرَ شيئاً كهذا.

- كم أتمنّى لو أنّ هذا لم يحدث.

- أنا لم أنم اللّيلة الماضيةَ، لم أتمكن حتى من إغماض عينيّ.

- ولا أنا أيضاً، أنا لا أكاد أتناول طعامي! حتى أن زوجتي عندما أخبرتها بالأمس سيغشى عليها.

- كيف أمكنه فعل ذلك؟ لا يمكن أن يكون ذلك مجرد نزوة كيف أمكنه فعلها؟

- الأمر مرعب ومربك.

- هل كنت تعرفه؟ هل كنتما مقرّبين من بعضكما؟

- لا، لا، لا، بالطبع لسنا مقرّبين.. لا أعتقد أن هناك شخصا كان مقرباً منه. كان شخصًا وحيدًا منطويًا على نفسه. متحفّظًا في علاقاته مع الآخرين. بعض الناس تعرفوا عليه جيداً، ولكن... أنت تعرف الباقي.

- ما حدث جنوني، لا يمكنني تصديق أنه حدث بالفعل.

- ما حدث واحد من أبشع الأشياء في العالم، مع الأسف أن ما حدث حقيقي.

- كيف حال الطريق؟

- ليس سيئاً، فقط كان زَلِقًا بعض الشيء.

- جيد، إنها لا تمطر في الخارج.

- أجل، أتمنّى ألّا تهطل الأمطار بعد قليل.

- الطقس شديد البرودة في الخارج اليوم.

بشكل فردي، أعترف بأني، وجاك نفتقد الجاذبية تماما، نفقد وجاهتنا، نتوه في الزحام، ونحن منفصلان، ولا يلاحظنا أحد على الإطلاق، ولكن عندما نتحد معاً، هنا تكمن قوتنا، ونصبح ثنائيا بارزا ومُميزا، رغم طول جاك، الذي يجعل هيئته تبدو كأنه ينحني، ورغم قصري الشديد، إلا أن وجودنا معاً وسط الزحام، يجعل الناس يراقبوننا بنظراتهم، ولا يكفّون عن ملاحقتنا.

في غضون ستة أيام من أول لقاء لنا في حفلة الحرم الجامعي، تناولنا معاً ثلاث وجبات وذهبنا معاً لنزهتين وشربنا القهوة معاً وشاهدنا فيلمًا معاً.

أخبرني جاك أنني أذكّرهُ بالفنانة الأمريكية، وعارضة الأزياء الشابة «أوما ثورمان».

لم يصفني جاك يوماً بالفتاة المُثيرة، وهذا أمر رائع! ولكنه قال لي أكثر من مرة: يا جميلتي، آخر مرة قالها لي كانت بعد أن أقمنا علاقة.

كنت أعرف أنَّهُ سيأتي يوم ونمارس فيه الجنس، ولكنّنا لم نخطّط لذلكَ، بل كانت تلكَ المرّة الأولى التي أمارسُ فيها الحب.

كان ذلك في تلك الليلة التي سهرنا فيها معاً، وشربنا الخمر بعد أن قمت بإعداد «شوربة» الخضروات.

كنت أفكر حينها في أنه عليّ إخباره بذلك النداء الذي يأتيني من حين إلى آخر، ويسكنني، ولكنّي سرعان ما تراجعت عن ذلك، كانت تلك هي لحظتنا الأقرب على الإطلاق، إذ كانَ يمكنني أن

أفصحَ عن أيّ شيء في داخلي.

حينَ نهض جاك، وتوجه إلى الحمام، كنتُ مستلقية بمفردي على الفراش. ارتسمت في ذاكرتي حينها ذكرى غريبة، ذكرى غامضة. تذكرت كيفَ كنتُ فتاةً صغيرة، في السابعة أو السادسة، حينَ استيقظت فجأة من نومي في إحدى اللّيالي ونظرت عبرَ النّافذة فرأيت رجلاً يقف أمامي مباشرة ويحملق في وجهي.

تلكَ القصة ليست من نسجِ خيالي، ولم يخبرني بها أحدهم في إحدى حفلات العشاء. بل كانت قصة حقيقية، قصّة لا تبدو مكتملة ولكنها حدثت بالفعل، ولا أدري لماذا خطرت تلك الذكرى ببالي في تلك الليلة تحديداً.

كيف يمكننا أن نعرف أن هذا الشّيء منذر بالخطر؟ ما الذي يرشدنا إلى أن هذا الشّيء أمرٌ خبيث؟

الحدس يتفوّق دائماً على المنطق.

عندما أستقيظ ليلًا، أجدني وحيدةً في مواجهةِ تلكَ الذكرى التي تُرعبني وتخيفني كلّما وضعتُ خطوةً أخرى في هذه الحياة. في كلّ مرّة أتذكّرها، أجدها أكثر سوءاً وأكثرَ وحشةً.

استيقظت من نومي فجأة وبلا سببٍ مقنعٍ، لم أكن أرغب في الذّهاب إلى الحمّام ولم تكن تتملّكني رغبة في شيء. كلّ ما في الأمر، أنّني وجدتُ نفسي مستيقظة على نحوٍ مفاجئٍ. لم يكن الأمرُ طبيعيًّا، إذ دائما ما يتطلّبُ منّي الأمرُ بضع دقائق كي أستيقظ،

ولكنّني ليلتها صحوتُ كما لو كانَ ثمّة من يركلني ويدفعني إلى النّهوض.

كنت أستلقي على ظهري، وهذا في حدّ ذاته أمر غريب، لأنني دائماً أنام وأنا مستلقية على بطني أو على جانبي. كانَ اللّحاف ملفوفًا على جسدي بإحكامٍ، كما لو أنّ أحدهم دسّني داخل الغطاء.

شعرت بالحرارة الشديدة، كنت أتعرّق، إلى درجة أنّ وسادتي كانت مُبَلّلَة، وباب غرفتي كان موصداً والمصباح اللّيلي الذي اعتدت على تشغيله كان مُطفأ، أمّا الغرفة فقد كانت تغرقُ في ظلامٍ دامسٍ.

المروحة المُعَلقة بالأعلى كانت تدور بسرعة كبيرة، أتذكر هذا الجزء جيداً، كانت المروحة تدور بسرعة فائقة، كأنها تتأهّبُ للسّقوطِ من الأعلى.

لقد كان ذلك هو الصوت الوحيد الذي يسكن أذنيّ، صوت محرك المروحة، وشفراتها الحادة تخترق الهواء.

لم يكن منزلا جديدًا، ولكنّي كنت أسمع صوت صرير في كلّ مرة أستيقظ فيها، إلا أنني لم أسمع في تلك اللحظة شيئاً كنت نائمة حذوه. حينها رأيته.

كانت غرفتي في الجزء الخلفي من المنزل، وكان الحمام الوحيد يقعُ في الطابق الأرضي، أمّا النافذة فقد كانت أمامي مباشرة، حيثُ

كانَ الرّجل واقفًا. لم أستطع رؤية وجههِ الذي حجبهُ إطارُ النّافذةِ، رأيتُ خيالهُ وهوَ يتمايل قليلاً ويفرك يديه من حينٍ إلى آخر وكأنه يحاول تدفئتهما.

يرتسمُ ذلكَ المشهد في ذاكرتي بقوّة، لقد كان الرجل طويلًا، ونحيلًا للغاية. إلى الآنَ وأنا أتذكّرُ الحزام الأسود الذي كان يرتديه، الذي كان يُحكِم إغلاقه حول جسده، وهذا الجزء الفائض الذي يتدلى منه أشبه بذيل في المقدمة.

كان أطول من أي رجل رأيته في حياتي.

كلما رأيته وراقبته، بدا كأنّهُ ينظر إليّ من وراءِ النّافذةِ، وعيناه ورأسه تتّجه إلى أعلى.

تجمّدتُ في مكاني وظلّ هو بدورهِ على حالهِ، ظلّ كلانا يراقب الآخر.

كان يفرك يديه، وكأنه في استراحة من عمل بدني مُرهِق.

كلما تأمّلت الرجل، شعرتُ أنّه ينظر إليّ. أعرف أنّ ذلكَ لم يكن حلُماً. طريقة مراقبة الرجل لي تؤكد أنّ هذا المشهد ليس حلماً على الإطلاق.

كان هناك موسيقى خفيفة قادمة من خارج النافذة. لم ألحظ تلك الموسيقى عندما استيقظت للوهلة الأولى، ولكنّني عندما شرعت في تأمل الرجل، سمعت صوت الموسيقى بوضوحٍ. لست واثقة إذا كانت تسجيلات موسيقية أم أنها مجرد دندنة.

استمر الحال على هذا المنوال، لدقائق وربما لساعات.

لَوّح لي الرجل بيديه. في الحقيقة كان الأمر مفاجئاً لي، ربّما لم يكن يلوّحُ لي، ربما كانت فقط مجرد حركة عابرة بيده.

تلويحُ الرجل لي جعلني أشعر بشيء غريب. تملّكني شعور خبيث، وكأني أختنقُ وكأنّ ما فعله الرّجل هو إشارة ليقول لي: لا يمكنكِ أن تكوني بمفردك، سأكون دائماً حولك! سأعود إليكِ مرة أخرى.

شعرت بخوفٍ مباغت.

مشكلتي أنّ هذا المشهد يبدو حقيقيّا بالنسبة إليّ، الآن تماماً كما بدا في الماضي.

حاولت أن أصرخ بملء صوتي، ولكني لم أستطع. أغمضت عيني، ونمت، وعندما استيقظت في الصباح كان الرجل قد رحل عن النافذة.

بعد انقضاء تلك الليلة، كنت أظن أن هذا المشهد سيتكرر كل ليلة، ولكنه لم يحدث مجدداً عكس كل توقعاتي.

أظنّ أنني أراه في بعض الأوقات، كنت أمرُّ بجانب النافذة في إحدى اللّيالي ورأيت هناك رجلاً طويلاً يجلس القرفصاء على المقعد. كان ينظر إليّ. لست على يقين بأن هذا الرجل كان شريراً، ولكنّه يبدو كذلك.

أكره طريقةَ نظرهِ إليّ، ولكن ما الذي يمكنني فعله؟ ليس بيدي

حيلة، لم يكن الرجل يقوم بأيّ شيء خاطئ، لم يكن يفعل أيّ شيء على الإطلاق، لم يكن يقرأ، ولم يكن يتحدّث، فقط يجلس أمام نافذتي، لماذا يجلس هناك؟ بمجرّد التفكير في ذلك، يتملّكني ذعر شديد، ربما يدور كلّ هذا داخل رأسي فقط وربما هي مجرّد تخاريف يمكنها أن تستحيل إلى واقع مرير.

كنت مستلقيةً على ظهري عندما دخل جاك إلى الحمّام. عند عودتِه، كانت أغطية الفراش في وضع فوضويّ للغاية، كانت إحدى الوسائد مُلقاة على الأرض. الشّكل الفوضوي للغرفة حينها، جعلها تبدو مسرحا لجريمة ما.

وقف جاك عند طرف السّرير، صامتاً لفترة طويلة من الوقت، ارتدى ثيابه، وعاد إلى الفراش مرة أخرى.

– أريد أن أكون برفقتكِ اللّيلة، لا أريد أن أرحل وأتركك، قالَ جاك.

رائع جداً، لم يكن هناك ارتباط حقيقي بيني وبين حبيبي السابق، فنادراً ما تعثر على حبيب تتعلّق به بشكل كبير، تعتمدُ بعض العلاقات بشكل أساسيّ على ممارسة الجنس، من دون وجود اتصال روحاني وفكري وعاطفي بين الطرفين. لقد أخبرتُ جاك بأن ذلك النّوع من العلاقات لا يستمرّ طويلاً.

لا أعرف لماذا قلت له ذلك؟ ولماذا أشرت إلى حبيبي السابق؟ لم يكن هناك داعٍ لما قلته، ولعلّ ما قلته يفتقرُ إلى الصحّة، لم يقل جاك

أيّ شيء تعقيباً على كلامي، فقط قال لي:

- أحبُّ أن أكون معكِ، أنتِ جميلة ورقيقة للغاية.

- أنت أيضاً شخص رائع، قلتُ لجاك.

بعد مرور خمس دقائق، نام جاك، وكنت أشعر بالحرّ الشديد، لذا ركلت اللّحاف بعيداً عنّي.

كانت الغرفة مظلمة، ولكني اعتدت عليها، وتأقلمت معها عيناي. يمكنني رؤية أصابع قدمي في هذا الظلام الدامس، ويمكنني سماع هاتفي المحمول يرنّ في المطبخ، كان الوقت متأخراً للغاية، مَن ذا الذي يتّصلُ بي في هذا الوقت المتأخر جداً من الليل؟

لا أرد على هاتفي، ولا أنام، أظلّ هكذا أتقلب من جنب إلى جنب.

في الصباح عندما استيقظت، كان جاك قد غادر المكان، وكنت أشعر بالصّداع، وكان فمي جافاً، وعلى الأرض، كانت زجاجة نبيذٍ فارغة مُلقاة على الأرض. لا أملكُ فكرةً عمّا حدث بالأمس.

كان عليّ أن أخبر جاك بشأن هذا المُتّصِل، إلا أنني لم أفعل.

أول مرة، اتصل بي ذلك الشّخص، كان في اليوم نفسه الذي التقيت فيه جاك في حفل الجامعة، كان صوته غريباً، منخفضا للغاية، يبدو كأنه مُرهَق.

في البداية، عند أول لقاء جمعني بجاك، منذ المواعدة الأولى، منذ

الأسبوع الأول، لاحظت بعض الأشياء الغريبة حوله، وفي الحقيقة لم يكن يعجبني أني لاحظت تلك الأمور.

حتى تلك اللحظة التي أجلس فيها إلى جواره في السيارة، ظللتُ أستنشقُ رائحته! لكنها الآن في ذلك الحيز الضيق تبدو خفيفة، لا يمكنني وصفها بدقة، الأمر أشبه بمجموعة من التفاصيل الصغيرة التي تلاحظها في فترة قصيرة من الوقت، إنها فقط رائحة جاك. لا يمكنني وصفها بأكثر من ذلك.

رغمَ مرورِ شهورٍ وسنين على علاقتي بجاك، ثمّة أشياء كثيرة لا أعرفها عنه، وثمّة أشياء كثيرة لا يعرفها بدوره، ومن بينها حكاية هذا المتّصل.

كانَ المتّصلُ رجلًا، يمكنني التّعرّفُ على صوتِهِ بمجرّدِ سماعِهِ عبر الهاتف. رجل في منتصف العمر أو ربما أكبر بقليل. ترسمُ في صوتِهِ نبرة نسائية عالية، كما لو أنّهُ يحاول تقليد صوت نسائي، أو ربّما يحاول أن يجعل صوته أكثرَ رِقّة. بدا الصوت مشوّهًا، بطريقة غير محبّبة للنفس، لم أستطع أن أعرف صاحب الصّوت، أنا على يقين من أنه ليس صوت شخص أعرفه.

أقضي وقتاً طويلاً في الاستماع لرسالة المُتّصِل الأولى، مرات ومرات لعلّي أستطيع اكتشاف أي شيء.

بعد أن استمعتُ لرسالة المُتصِل الأولى، شرحت له أن الرقم خاطئ، وحينها قال لي: أنا آسف، ثم انتظر دقائق دون أن يقول

شيئاً، ثم أغلق الخطّ، ونسيت كل ما يتعلق بذلك حينها.

في اليوم التالي، رأيت مكالمتين فائتتين تعودانِ إلى منتصف الليل، إحداهما كانت من الرقم الخاطئ نفسه، الذي حدثني في اللّيلة السابقة.

تحققت من الرقم مرة أخرى، وتساءلتُ لماذا يتصل هذا الرجل مرة أخرى؟

الأمر الغريب، وغير القابل للتوضيح، أنني وجدت تلك المكالمات قادمة من هاتفي الخاص!

لم أصدق هذا الأمر في البداية، حاولت التحقّق مرة أخرى، وجدت للمرة الثانية أن تلك المكالمات الفائتة قادمة من هاتفي.

بعد مرور ثلاثة، أو أربعة أيام، من وصول رسالة المُتَصِل الأولى، بدأ الأمر يصبح مُخيفاً، ما زلتُ أحتفظ بتلك الرّسالة حتى الآن. ما زلت أحتفظ بكلّ الرّسائل. كان عدد الرسائل التي وجهها إليّ هذا المُتَصِل سبعًا. لا أعرف لماذا أحتفظ بها، ربما قد أخبرُ جاك بشأنها يوماً.

مَددت يدي إلى داخل حقيبتي، وأخرجت هاتفي، كان هناك اتصال.

- مَن المُتَصِل؟ يسألني جاك.

فقط أُفَتِش في رسائلي.

استمعت لرسالته الأولى، أول رسالة وجهها إليّ هذا المُتّصِل:

«هناك سؤال واحد، أنا خائف للغاية، أشعر بأنّني في طريقي إلى الجنون، وها هي الافتراضات باتت حقيقية، يتبقى سؤال واحد، سؤال واحد فقط في حاجة إلى الإجابة».

لم تكن رسائل المُتَّصِل عنيفة أو تهديدية ولم يكن الصوت أيضاً كذلك.

بدت الرسائل حزينة، حزينة للغاية، كان هناك شيء من الإحباط في صوت المُتَّصِل، لم أعرف ما الذي تعنيه كلماته التي بدت غير منطقية. كل ما قاله بدا هذيانا.

أصبح الاستماع لتلك الرسائل الصوتية التي تأتيني مع جاك، ومن هذا الرّجل المُتّصِل الغريب، متعتي التي أقضي معظم الوقت في الاستماع لها.

أحياناً، أستيقظ ليلاً، وأجد مكالمة فائتة في تمام الثالثة فجراً، تلك المكالمة تكون من هذا المُتّصِل الغريب، الذي أخبرته سلفاً بأنّ هذا الرقم خاطئ.

اتصل بي هذا الرقم ذات مرة، وكنت أشاهد فيلما برفقة جاك، وحينها تظاهرت بأنّي لا أعرف المُتَّصِل، وأعطيت الهاتف لجاك، أجاب جاك على الاتصال ثم أخبرني بأنه صوت امرأة عجوز.

لم أستطع النوم في تلك الليلة.

منذ أن بدأت استقبال تلك الرسائل الصّوتية المجهولة، بدأت

تطاردني الكوابيس بشكل يومي، كنت أصحو وأنا أشعر بالهلع، أشعر كأن شخصًا ما في شقّتي، هذا لم يحدث لي من قبل. الأمر مثير للذعر والريبة، الأمر أشبه بأن هناك شخصا ما في غرفتي، يراقبني من إحدى الزوايا، أشعر بالخوف، إلى درجة تجعلني أتجمّد في مكاني، ولا أستطيع التحرك.

كنت نصف نائمة، لاحقاً، استيقظت بشكل كامل، وتوجّهتُ إلى الحمام. كانت شقتي في غاية الهدوء والسَّكينة على الدوام، ولهذا أقوم بفتحِ صنبور المياه حتّى أخلق نوعًا من الضّوضاء التي تقضي على هذا السّكون المُميت.

قلبي يدقُّ بسرعة، أشعر بتعرق جسدي كلّه. عليّ أن أقوم بتغيير ثيابي. هذا الشّعور مرعب. لم أختبره من قبل، ولم أصل إلى تلك المرحلة من التوتر والذعر، يبدو أنه قد فات الأوان، عليّ أن أُخبر جاك، يبدو أنني الآن على حافة الهاوية.

ذات ليلة، استيقظت، ووجدت اثنتي عشرة مكالمة فائتة من هذا المُتَّصِل المجهول.

لم تكن هناك رسائل صوتية هذه المرة، فقط مكالمات فائتة، جميعها واردة من هاتفي الخاص.

إذا حدث هذا الأمر لأشخاص غيري، ربّما سيتصرفون بشكل آخر وربما سيحاولون البحث عن حلّ لتلك القضية الغريبة، ولكن ما الذي يمكنني فعله؟

لا يمكنني الاتصال بالشرطة، لأنّ هذا المُتّصِل لم يهدّدني بشيء ولم تكن رسائله الصوتية عدائية. هذا يجعل الأمر غريبا برمّته.

يرغبُ المُتَّصِل دائماً في أن يتحدث وحده، أن يبعث لي بتلك الرسائل العجيبة الغامضة من دون أن أتحاور معه، هو يرغب في أن يكون المتحدث الأوحد. اتصل بي ذات مرّة، وحينها قمت بالردّ، فقام بإغلاق الخطّ. ذلك المُتَّصِل يرغب في أن يُبقي كل شيء مُريباً مُربكاً.

جاك ليس مُنتبهاً إلى ما أفعله الآن، لأنه مشغول بالقيادة، وأنا أستمع لتلك الرسالة الصوتية مرة أخرى:

«هناك سؤال واحد، أنا خائف للغاية، أشعر بأني في طريقي للجنون، وها هي الافتراضات باتت حقيقية، يتبقّى سؤال واحد، سؤال واحد فقط في حاجة إلى الإجابة».

استمعت لتلك الرّسالة عشرات المرات.

جميع رسائل المُتّصِل المجهول واحدة، جميعها متشابهة كلمة كلمة، ولكن تلك الرسالة الصوتية تحديداً كانت مُخيفة، مُرعبة، كان هناك تغيير ما في نهايتها عن باقي الرسائل الأخرى الواردة منه.

جعلتني أشعر بأنه عليّ أن أقوم بإنهاء كل هذا، عليّ أن أخبر جاك بما يحدث.

ما زلت أرتجف كلما سمعت تلك الرسالة:

«هناك سؤال واحد، أنا خائف للغاية، أشعر بأني في طريقي للجنون، وها هي الافتراضات باتت حقيقية، يتبقى سؤال واحد، سؤال واحد فقط في حاجة إلى الإجابة، والآن سأقول لكِ شيئاً، سيقوم بإخافتك، سيجعلك تتوترين، أعرف جيداً كيف تبدين؟ كيف تبدو يداكِ وقدماكِ؟ كيف يبدو شعرك وقلبك؟ وعليكِ التوقف عن عادة قضم أظفارك».

عليّ أن أنهي تلك المهزلة، في المرة القادمة سوف أقوم بالرد على هذا المُتَّصِل وسوف أقوم بإيقافه.

رنّ الهاتف.

- لماذا تتصل بي؟ وكيف حصلت على رقمي؟ سألته كنتُ غاضبة وخائفة. الأمر لا يبدو صدفةً. لا يبدو أنّ هذا الرقم قد حصل على رقمي بشكل عشوائي.

يبدو أنه لن يتوقّف، هذا الرجل لن يتركني ويرحل بعيداً عن حياتي. يبدو أنه يريد أن يحصل على شيء مّا، ما الذي يريده؟ ولماذا يتّصل بي أنا على وجه الخصوص؟

- ما الذي تريده مني؟ لا يمكنني مساعدتك.

- ولكنّكِ اتصلتِ بي، قالَ المُتَّصِل المجهول.

- ماذا؟ قلتُ وأنا أصرخ.

أغلقت الخطّ، وأوقعت الهاتف أرضاً، أعرف بأنها مجرد صدفة غبيّة، لأنني بالفعل اعتدت على قضم أظفاري منذ أنّ كنت طفلة في

الصفّ الخامس.

- في الليلة التي هاتفتني فيها، كان لدينا حفلة عشاء، كنت أعدّ فطيرة الجوز وصلصة الكراميل من أجل التحلية. ليلتها، خرّبت تلك المكالمة حياة الجميع. ما زلتُ أتذكر كل حرف قلته في مكالمتك.

- كان الأولاد في الخارج، عندما استمعت لها، اتصلت بك على الفور حينها.

- هل كان مريضاً أم أنه كان يعاني من الاكتئاب؟

- لا أظن ذلك، لأنه لا يتناول مضادات الاكتئاب، ولكنه يخفي المزيد من الأسرار، أنا على يقين بأنه ما زال هناك المزيد من الأسرار التي يخفيها.

- أجل.

- لو أننا فقط نعلم مدى خطورة الموقف، لو تتوفّرُ فقط بعض العلامات، طالما وجدت إشارات لذلك.

لم يكن شخصاً عاقلاً.

- هذا صحيح، هذه وجهة نظر سديدة.

- هو لم يكن مثلنا.

- أجل، لم يكن مثلنا.



- إذا كنت لا تملك شيئاً على الإطلاق، فليس هناك ما تخسره.

- أجل، ليس هناك ما تخسره.

أفكر كثيراً في أن ما نعلمه عن الآخرين، ليس ما يخبروننا به وإنّما ما نعلمه عنهم هو ما نكتشفه نحن.

كما قال لي جاك ذات يوم إنّ الناس بإمكانهم أن يقولوا لك أيّ شيء، أي شيء.

فمثلاً، إذا قال لك أحدهم: سررت بلقائك، فتأكد أنه يفكر في شيء ينافي ذلك تماماً، وربما يطلق أحكامه عليك، وينتقدك.

لا يبدو لفظُ «مسرور» دلالة على الفرحِ، فالبشرُ من حولكَ يشعرون تجاهك بشعور مختلف ويفكرون فيكَ بتفكير مُخيف ولكن هذا ما يقولونه وهذا ما نسمعه.

أخبرني جاك ذات مرة بأنّ كل علاقة ترتبط بحسابات محدّدة بين الطرفين، ترتبط بالتكافؤ بينهما، ولكن كيف ذلك؟ معنى ذلك أنه قد يتغير مصير علاقة ما بين ليلة وضحاها!

قد تنتهي علاقة ما من ساعة إلى أخرى!

علاقتنا تسير على الوتيرة نفسها ليلاً. وعلى الإيقاعِ نفسه في الصباح. عندما نتناول الإفطار، لا نتحدّث كثيراً، أحبّ أن أتحدّث ولو قليلاً، خصوصًا عندما أنهضُ من النّوم ويكونُ الكلام مرحاً.

لا شيء يمكنهُ أن يوقظني من النّوم سوى ضحكة من القلب في الصباح الباكر، سحر تلك الضّحكة يتفوّقُ حتّى على الكافايين.

يفضّل جاك أن يتناول حبوب الإفطار، والخبز المحمّص في الصباح وهو يقرأ في هدوءٍ هذا الكتاب الذي يقرؤه حالياً. أراهن بأنه قرأه خمس مرات من قبل.

يحرص جاك على قراءة أي كتاب مُتاح، يندمج في القراءة، ويتفاعل مع قصة الكتاب، وينسى تماماً أي شيء حوله، يقرأ في هدوء قاتل، على عكسي تمامًا، فأنا لا أفعل ذلك، أحبُّ القراءة، لكنّني لا أحبُّ ممارسة القراءة في أثناء تناول الطعام مثله.

القراءة بهدف القراءة أمر مزعج بالنسبة إليّ، بإمكان جاك قراءة أي شيء، ورقة، مجلة، جريدة، كتاب، منشور إعلاني، علبة طعام، أي شيء.

هل تعتقد أن مسألة وجود أسرار في العلاقات العاطفية أمر غير مُنصِف، وغير أخلاقي؟ سألت جاك.

أجابني على حين غرة، قائلًا:

لا أعرف، هذا كلّه يتوقف على عدد تلك الأسرار، هل هي أمور مهمّة أم تافهة؟ كل العلاقات العاطفية بين أيّ ثنائي، تغطّيها الأسرار، حتى لو ارتبطَ الأمر بزواجٍ دام خمسين عاماً، تأكّدي أنّ هناك أسرارا يخفيها أحد الطرفين عن الآخر.

في الصّباحات التالية، ونحن نتناول الإفطار معاً، لم أكن أتحدث

إليه. ساد الصمت بيننا، كنا نراقب بعضنا بعضا من بعيد، كان جاك يمارس عادته اليومية في الجمع بين القراءة وتناول الطعام، كنت أراقب طريقته في القراءة في صمت، بدا كأنه يأكل الحروف بعينيه، يصبّ كامل تركيزه على قراءة الكلمات والتأمل فيها، وكلما ازداد تركيزُه في القراءة، كلما تباطأت حركة فكّيه في المضغ، وكلما تباطأ في البلع أيضاً.

في أثناء مراقبتي الصامتة لجاك، ودون أن ينطق كلانا حرفاً، لاحظت وجود مادة سائلة بيضاء على شفتيه، في كل صباح، في العادة تختفي تلك المادة بعد أن يستحمّ، ولكني أتساءل تُرى من أين جاءت تلك المادة السائلة؟ هل لأنه يتنفس من فمه، وليس من أنفه؟ وعندما أراها، أشعر بغصّة في داخلي. عندما أفكّرُ بأنّه إذا استمرّت علاقتنا سنوات طويلة، هل سأتحمل رؤية تلك المادة البيضاء على شفتيه طيلة تلك السنوات القادمة؟ هل وحدي مَن يفكر في تلك الأمور؟ أم أن ذلك النوع من الأسئلة، وإن بدت تافهة تخطر على بال أي ثنائي بشأن علاقتهما معاً.

أحياناً بعد تناول الغداء، تحديداً بعد تناول وجبة دَسمة، أستمع لجسد جاك يُحدث صوتاً شبيهًا بمبرد السّيارة. بإمكاني سماع صوت السوائل، وهي تتدفّقُ عبر جسده، لا يحدث هذا بعد الإفطار، بل يحدث كثيراً بعد العشاء.

أكره أن أركز تفكيري على تلك الأمور، أعترف أنها تبدو تافهة، وغير مهمة على الإطلاق، ولكن لا يمكنني أيضاً أن أتخلى عن

التفكير فيها، إذا كنا بصدد الدخول في علاقة جدية معاً، وليست مجرد علاقة عابرة، التفكير في تلك الأمور حقاً يقودني إلى الجنون، هل أنا مجنونة لأني أفكر في تلك الأمور عديمة القيمة؟

جاك شاب ذكي وقريباً سيصبح أستاذاً. سيشغل منصباً مرموقاً، وهذا كله مثير للإعجاب، بالإضافة إلى كونه طويل القامة، وبنيتهُ الجسديّةُ قويّة، كل ما تمنيته سابقاً في مواصفات الرجل الذي أرغب في أن أتزوجه متوفّرة في جاك، كل هذا الأشياء تضمن حياة جيدة في المستقبل.

- هل تعتقد أن لدى والديك أسرار؟

- مؤكد أن لديها أسرار، مما لا شك فيه.

الجزء المثير للسّخرية هنا هو أنني أسأل جاك عن إخفاء الأسرار بين الزوجين، وأنا أخفي عنه شكوكي، وهو آخر شخص يمكنني أن أتحدث معه بشأنها، وكثرة تساؤلاتي تلك تجعله يشكّ في أمري، وقد تجعل كلانا يتورط في مشكلة ما.

- لماذا كل أسئلتك عن الأسرار؟ سألني جاك.

- ليس هناك سبب محدّد، أنا أسأل فقط.

ربما عليّ الاستمتاع برحلتي تلك، ينبغي ألاّ أتوتر كثيراً بشأنها، لأدع كل شيء يسير بشكل طبيعي، وأتوقّف عن القلق والتفكير الزائد عن الحدّ.

الناس دائماً يقولون بأن ينبغي أن نترك العلاقات تسير بشكل

طبيعي، وهل ما أفعله الآن عكس ذلك؟ أليست تلك الأفكار الغريبة تأتيني بشكل طبيعي؟ أليست تلك الشكوك التي تحاصرني تأتيني بشكل طبيعي؟

لم أفعل شيئًا عكس ذلك على الإطلاق.

أسأل نفسي ما الذي يدفعني فعلاً إلى التفكير في إنهاء علاقتي مع جاك، ولكن كيف يمكننا ألا نسأل أنفسنا ذلك السؤال عند الارتباط بشخصٍ ما؟ ما الذي يجعلنا نفكر في أن نمضي قُدماً؟ ما الذي يجعلنا على يقين بأن الأمر يستحقّ المُجازفة؟

على النقيض، في معظم الأوقات، أفكر في أنّني سأكون أفضل من دون جاك، من دون وجوده في حياتي.

يبدو ذلك الشعور منطقيًّا أكثرَ، وأفضلَ من الاستمرار في تلك العلاقة.

لست واثقة من ذلك، وكيف سأكون واثقة وأنا لم أنفصل عن أحدٍ من قبل؟

جُلّ العلاقات العاطفية التي مررت بها، كانت أشبه بعلبة حليب فاسدة انتهى تاريخ صلاحيّتها. مذاقها لم يصل إلى درجة التسمّم ولكن يمكنك استشعار مذاقها اللاذع الحمضي. ببساطة يمكنك اكتشاف مذاقها المتغيّر.

بدلاً من أتساءل بشأن جاك، عليّ الاعتراف بفشلي في اختبار الشّغف، ربما أنا الوحيدة التي تتحمّلُ هذا الخطأ.

- لا أمانع إذا كانَ الجوّ بارداً هكذا، ما دام الطريق خالياً، يمكنك تدفئة نفسك ببساطة، ولكنْ هناك شيء عميق يتعلق بالبرودة، شيء يتعلق بالانتعاش، قال جاك.

لا أحبّ أن أشعر بالبرودة، أفضّل الصّيف، قلتها، ما زال لدينا شهر آخر قبل الرّبيع، من الواضح أنه سيكون شهراً طويلاً للغاية.

رأيت كوكبَ الزّهرة ذات صيف دون منظار.

اعتدت على سماع أشياء كهذه من جاك.

ذات ليلة، عند غروب الشّمس، لم يكن من السّهل رؤيته من الأرض مرة أخرى لما يزيد عن مائة عام، كان حدث «محاذاة الكواكب» نادر الحدوث ويمكنك رؤيته وهوَ يلوحُ كنقطة سوداء صغيرة. كانَ الأمرُ مذهلاً بالفعل.

- لو كنت أعرفك حينها، لكنت أخبرتني، وذهبنا لمشاهدته معاً.

- بدا الأمرُ حينها، وكأنّهُ لا وجودَ لأيّ شخص يهتمّ بذلك الحدث الجَلل في الوقت الذي يظهر فيه الزهرة بمحاذاة الأرض، ولكنّكِ تجدينَ معظمهم جالسينَ أمام التلفاز. لا أقصد الإهانة، إن كنت تشاهدينَ التّلفاز حينها، ضمنَ هؤلاء.

- لا أعرف معلوماتٍ كثيرةً عن كوكب الزّهرة، فقط ما أعرفه أنّه الكوكب الثّاني من ناحية الشّمس.

- هل تحبّ كوكب الزّهرة؟

- طبعاً..

- لماذا تحبّه؟

- اليوم على كوكب الزّهرة يعادل مائة وخمسة عشر يوماً على الأرض، وهوَ مُكوّن من النيتروجين وثاني أوكسيد الكربون. كما أنّ لبّ هذا الكوكب حديديّ وتملؤهُ البراكين والحمم المتجمّدة. إنّهُ شبيهٌ بأيسلندا إلى حدّ ما. عليّ معرفة سرعته المداريّة، سوف أعودُ إلى هذه المعلومةِ لاحقاً.

- هذا رائع جداً.

- ولكنْ ما يعجبني أكثر هو ذلك الجزء الذي يتعلّق بالنّور الذي يمرّ من الأرض للقمر. أشدّ بقعة في السّماء سطوعا على الإطلاق، معظم النّاس لا يعرفونَ شيئاً عن هذا الأمر.

أحبّه وهو يتكلّم بهذه الطّريقة.

- أشعر بأنّني أرغب في سماعِ المزيد، هل أنت مهتمّ دائما بشؤون الفضاء؟

- لا أعرف، ربّما كلّ شيء في الفضاء له وضع نسبيّ. عالم لا حدود له، لا نهاية، تقلّ الكثافة كلما ابتعدت، ولكنْ يمكنك دائماً المُضيّ قُدماً، ليس هناك حدود فاصلة بين البداية والنّهاية، لن نستطيع أبداً أن نفهمَ الأمرَ بشكل واضح ولن نستطيع معرفَتَهُ أبدًا.

- أتعتقد ذلك حقًا؟

- المادّة السّوداء تشكّل غالبيّة كلّ المواد، ولا يزال الأمر غامضاً.

- المادّة السّوداء؟!

- إنّها غير مرئيّة. فهي عبارة عن هذه الكتل الزّائدة التي لا يمكننا رؤيتها. تلك المسؤولة عن تكوين المجرّات. إن فكرة تسريع عمليّة دوران النّجوم حول المجرّات ممكنة نظريًّا.

- أنا سعيدة لأنّني لا أعرف أيّ شيء عن ذلكَ.

- هل أنتِ سعيدة بذلك حقًّا؟

- كوننا لا نعرف كلّ الإجابات أمر في غاية الرّوعة، هذا يعني أنّه لا يمكننا تفسير كلّ شيء يدور حولنا، تماماً مثل الفضاء. ربّما لم يكن علينا أن نعرفَ الإجابات. فالأسئلة كافية وصحّيّة في حدّ ذاتها إذا أردتَ أن تعرفَ أيّ شيء عن الحياة وكيفيّة عملها؟ كيف نتقدّم في عملنا؟ الأسئلة هي الجزء الأهمّ، هي التي تدفعنا إلى الأمام وتجعلنا نتطوّر. أعتقد أنّ الأسئلة لا تجعلنا نشعر بالوحدة، الأمر لا يتعلّق دائماً بالمعرفة، أنا أُقَدّر الجهلَ في بعض الأحيان، عدم المعرفة يُعتبر نعمةً أحياناً. عدم معرفة كلّ شيء هو أمر بشريّ تماماً، هكذا ينبغي أن تسير الأمور، تماماً مثل الفضاء، الأمر معقّد، وغير قابل للحلّ ولكنه ليس كُلّيًّا.

ضحك جاك، فشعرتُ بسخافة ما قلته.

- أنا آسف للغاية، أنا لا أقصد السّخريّة منكِ، فقط الأمر مُضحك، لم أسمع أحدا يقول مثل هذا الكلام من قبلُ.

- ولكنْ، أليس صحيحاً؟

- أجل، صحيح، وجهة نظر جيدة.

- سمعت أن بعض الغرف تمّ تدميرها بالكامل.

- أجل، كان هناك طلاء على الأرضية، طلاء أحمر اللون، هل تعرف أنه كان يضع سلاسل حديدية على الباب؟

- لماذا يفعلُ شيئاً كهذا؟

- تصرُّف أناني، أعتقد أنه فعل ذلك ليجعل المشهد يبدو غامضاً غير واضح، لا أعرف السّبب.

- لم يكن شخصاً مُخرِّباً، أليس كذلك؟

- لا، ولكنّ الغريب في الأمر، أنّه كان قد بدأ في الرّسم على بعض الجدُران، جميعنا نعرف أنه مَن قام برسْمها رغم إنكاره ذلك. لقد تطوّعَ هو أيضًا لتنظيفها في كلّ مرة.

- هذا أمرٌ غريب للغاية.

- لا يعتبر هذا الجزءُ هو الأغربَ.

- ماذا؟

- الجزءُ الأكثرُ غرابةً هو أنه كان يكتب الشّيء نفسه، في كل مرة، كان يكتب جملة واحدة فقط.

- ما هي؟

- «هناك سؤال واحد فقط نحن في حاجة إلى الإجابة عنه».

- «هناك سؤال واحد فقط نحن في حاجة إلى الإجابة عنه؟!».

- أجل، هذا ما كتبه.

- وما هو هذا السؤال؟

- ليس لديّ أيّ فكرة.

- ما زال لدينا المزيد من الوقت حتّى نصل، أليس كذلك؟

- أجل.

- ما رأيك في أن أحكي لك قصّة؟

- قصّة؟!

- أجل إلى أن يمضي الوقت. أرغب في أن أحكي لك قصة، قصة حقيقية لم تسمع بها من قبل أنا متأكدة من أنك ستحبّها كثيراً.

قمت بخفض صوت إذاعة الراديو.

- بالتأكيد.

القصّة عني عندما كنت مُراهقة وصغيرة في السن.

أتأمّل وجهَ جاك في أثناء القيادة. يبدو كأنه مُتَرهّل ومُجْهَدٌ ولا يشعر بالارتياح. في المقابل، تبدو وضعيّة جلوسه جيّدة، أنا أنجذب عموماً إلى جاك، من خلال ذكائه، أعتقد أن بناءَه الجسديَّ، وذكاءَه

لا ينفصلان، على الأقلّ بالنّسبة إليّ.

- ها أنا مستعدّ، احكي لي قصّتكِ، قال جاك.

- حسناً، قلتُ لجاك، ثمّ قمتُ بإنزال ورق الصّحف الذي كنت أحمي به رأسي.

- لماذا تضحكُ الآن، ألم تكن تُمطر منذ قليل؟ قلتُ لجاك وأنا أبتسم له. قمت بالعثور على ورقة، وجدتها على مقعد فارغ في الحافلة، كُتِبَت على تلك الورقة تعليماتٌ بسيطة للغاية. ستصل إلى المنزل في تمام السّاعة العاشرة والنّصف، سيتمّ التّرحيب بك في الطّريق، أخبروني بأني لست في حاجة إلى أن أجعل الجرس يرنّ، أنت تستمع لي أليس كذلك؟

- أومأ جاك برأسه، كان يقوم بإنزال الزّجاج الأماميّ للنّافذة.

- عندما وصلت إلى هناك، كان عليّ الانتظار لبعض الوقت، لدقائق وليس لثوانٍ، عندما فُتِح البابُ، خرج منه رجل لم ألتقيه من قبلُ، أطلّ برأسه، ونظر إلى الأعلى، وقال شيئاً مثل، كنت آمل في ألاّ أجعلك تنتظرين طويلاً، بدا الرّجل مُرهقاً للغاية وكأنه لم ينم منذ أيّام، كانت هناك تجاعيدُ دُهنيّة حول عينيه، يملكُ لحية خفيفة، وشعرًا أشعثَ. حاولت أن ألقي نظرة على الرّجل، عندما كان الباب مفتوحاً.

- أنا دوغ، قال الرّجل، خذي المفاتيح وأمهليني دقيقة. سلّمني المفاتيح، فأمسكتها، ثمّ أُغلق الباب. تجمّدت في مكاني، وإذا

سألتني مَن هذا الرجل؟ أنا فعلاً لا أعرف أي شيء عنه، نحن تحدثنا فقط عبر الهاتف.

حدقت في وجه جاك.

- يبدو أنك تشعر بالملل، أنا أعرف أني أقول المزيد والمزيد من التّفاصيل وهذا يبدو مُملاً بعض الشيء. أعتذر لك، أنا أحاول فقط أن أروي القصّة بطريقة جيّدة، هل هو أمر غريب أنني أتذكر كلّ هذه التّفاصيل؟ هل يبدو الأمر مُملاً لأني أحكي لك كلّ شيء؟

- من فضلك أكملي حكايتك، أنا أحبّ الاستماعَ لذكرياتك.

- ظهر دوغ مرة أخرى، ركب السيارة وجلس في المقعد المُجاوِر للسائق وكان قد غيّر ملابسه وارتدى سروالَ جينز أزرقَ به فتحات من الرُّكبَة وقميصًا مُزَركشًا. كانت مقاعد السيارة مُرَقّطة بفرْوٍ برتقاليّ. كان الرجل يرتدي قبّعة بيسبول مُطرّزة.

لم يقل الرّجل أيّ شيء، لذا بدأت في روتيني التقليدي الذي اعتدته مع والدي، حركت كرسي القيادة للأمام، وعَدلت من وضعيّة المرآة، وتأكدتُ من وضع الفرامل، وضعتُ يدي على عجلة القيادةِ وعدّلتُ من وضعيّة جلوسي.

«لا أحب المطر» قال دوغ. كان هذا أوّل شيء ينطق به داخل السيارة، لم يتفوّه بشيء عن التّعليمات، فمنذُ متى كانَ يمارس القيادة؟ بإمكاني القول إنّه كان متوتّراً، وخجولاً للغاية بسبب

وجودنا معاً في السّيارة.

هل ترغب في أن نذهبَ إلى مكان بعينه؟ سألتهُ.

علينا أن ننتظر حتى تتوقف الأمطار.

استمرّ دوغ في إرشادي إلى الطريق الذي يُفترض بي أن أسلكه، واستمرّ في استخدام إشارات بيدهِ التي قادتني إلى أوّل موقف سيارات من جهة اليسار. كان موقف سيارات، ومقهى في آن واحد، سألني دوغ إن كنت أرغب في شرب القهوة أو الشاي، ولكني أخبرته بأني لا أريد.

يمكنني القول بأنّهُ كانَ يملكُ يدًا شبيهة بيد رسّامٍ أو كاتب. لم تكن أبداً يد مدرّب قيادة.

أما أظفارهُ، فقد كانت شبيهة بألواح تزلج مُصَغّرة وضيقة وقذرة وطويلة.

صمتنا لفترة من الوقت، كنا نستمع لصوت الأمطار في الخارج، وصوت محرك السيارة. سألني دوغ:

كم عمرك؟

ستة عشر عاماً.

كبيرة إلى حدّ ما.

- إذا شعرتِ بالرّغبة في التّوقّفِ عن سردِ قصّتك لبعض الوقت من أجل أن تتنفّسي، أو أن تستريحي، أو أن تبتلعي ريقك، فلا

تتردّدي أرجوكِ! قالَ لِي جاك. أنتِ تذكرينني بميرلي ستريب، تقومين بدورك كما ينبغي أن يكون.

- سوف أتنفس عندما أنتهي من سرد القصة.

قال لي دوغ مرة أخرى إنّ عمر السّادسة عشرة ليس بصغير، وإنّ هذه السنّ غريبة ومثيرة للمشاكل والاندفاع الممزوجِ بعدم النّضج. وبعد ذلك فتح درج السيارة، وأعطاني كتابًا صغيرًا، وقال لي: «هل تمانعين أن أقرأ لكِ شيئاً؟ فقط إذا لم يكن لديك مانع بما أننا جالسان هنا ننتظر أن تتوقف الأمطار.

قرأ لي دوغ ذلك: «إن معنى وجودي تحدّده الإجابة عن سؤال يتعلّقُ بي».

ومن جهة أخرى، أنا نفسي أشكّل سؤالاً بالنسبة إلى العالم، وعليّ التواصل مع تلك الإجابة بشكل أو بآخر. أنا أعتمد على الإجابة التي يقدّمها لي العالم.

- كيف بإمكانك تذكّر تلك الواقعة؟

لأنّه أعطاني الكتاب كتذكار، كان دوغ في مزاج يسمح له بالعطاء في ذلك اليوم. قال لي إنّ الخبرة ليست فقط ضروريّة من أجل قيادة السّيّارة، «الخبرة تتفوّقُ على العُمر» الخبرة ضروريّة من أجل التعلّم ومن أجل المعرفة.

- يا له من درس عجيب.

سألته لماذا يعمل كمُعلّم قيادة، قال لي إنّ تعليم القيادة لم يكن

خيارَه الوحيدَ، ولكنه اختار تعليم القيادة لأسباب عمليّة، قال لي إنّه نشأ وهو يُقِدّر الجلوس في السيارة، والتحدث إلى الآخرين، أخبرني بأنه يحبّ لعبة الأحاجي، والألغاز، قال لي إنّه أحبّ الإبحار مع شخص آخر، كتعبير مجازي وذكّرني بالقطّ تشاير في قصة «آليكس في بلاد العجائب» ولكن دوغ كان النسخة الخجولة منه.

- هذا مضحك.

- ما هو المضحك في الأمر؟

- لقد كنت أفكّرُ أيضاً في أنّ معرفتنا بذواتنا تتطلّبُ بالضرورة طرحَ بعض الأسئلة عليها .طالما آمنت بتلك الفكرة. أنا آسف لمقاطعتك، أكملي الحكاية.مكتبة .. سُر مَن قرأ

كنا ننتظر داخل السّيّارة توقُّفَ الأمطار، مَدّ دوغ يده إلى جيبه وأخرج نوعين غريبين من الحلوى. «هذه لكِ» قالَ لي دوغ «احتفظي بها ليوم مُطر آخرَ» أخذ قطعةَ الحلوى الأخرى وقام بكسرها بإصبعه إلى نصفين ثمّ أعطاني الجزء الأكبر وطلب مني أن أتناولها.

- هل أكلتِها بالفعل؟ ألم يكن غريباً أن يقوم هذا الرّجل بإعطائك قطعة حلوى؟ ألم تشعري حينها بالقرف بتناولها بعد أن لمسَها؟

- فكرت في كلّ هذا حينها، وبالفعل كنت أشعر بالقرف،

ولكن في النهاية أكلتها.

- أكملي.

لم يكن مذاقُها كأيّ شيء تناولته من قبلُ، لا أستطيع القول إن كان مذاقها سيّئاً أم جيّداً. قال لي إنّ تلك الحلوى أعطتها له إحدى تلميذاتِهِ حين كانت في رحلتها إلى آسيا. كان يمضغ قطعةً من الحلوى بعد أن سحقها بأسنانه، تذوّقتُ طعمها فجأة، لم يكن سيئاً، كان هناك طعم حمضيّ لاذع لذيذ في طريقه إليّ. هل تعرفين ما هو أفضل جزء في تلك الحلوى؟ سألني دوغ. أفضل جزء هو قراءة أغلفتها، أخبرني بأنه يجلبها لا ليأكلها، بل رغبةً منهُ في قراءة ما كُتبَ على غلافها. حدّثني عن العبارات المكتوبة باللغة الإنجليزية ثمّ قام بكشف غلاف الحلوى لي وطلب منّي أن أقرأه بصوتٍ عالٍ. ما زلت أتذكّرها كلمة كلمة:

أنتَ الآن إنسان جديد، كيف يغفل المرء اللذّة؟ كيفَ بإمكانه تجاهل المذاق المُميّز؟ هيّا أعد نكهتك الفريدة مرّة أخرى.

أعدت قراءة تلك العبارات عدّة مرّات لنفسي، وبصوتٍ عالٍ قال لي بأنّهُ يحتفظُ بما كُتب على تلك الأغلفة حتّى يتأمّلها ويفكّر فيها ويحاول أن يستوعبها.

قال لي دوغ بأنه ليس رجلاً شاعرياً، ولكنّ تلك العبارات المكتوبة على أوراق الحلوى اللامعة، كلّ عبارة منها تعادل قصيدة مذهلة لم يسمع مثلها في عمره كلّه.

قال لي إنّ هناكَ أموراً يقينيّة في الحياة. ليست كثيرة ولكنّها موجودة وتستخدم كوسائل علاجية في أوقات كهذه، عندما يهطلُ المطرُ أو في لحظاتِ الوحدة. الأمر أشبه بحلّ الألغاز، وعلى كلّ منّا، حلّ لغزه بنفسه.

- لم أنسَ أبداً ما قاله لي.

- وأنا أيضاً لن أنسى ما قلتِه الآن.

بعدها بدقائق، ونحن في موقف السّيّارات، أخبرني دوغ أن إحدى طالباتِه تلك التي أعطته الحلوى، لم تكن قادرة على القيادة، بل كانت سائقة فاشلة بكلّ ما تحملهُ الكلمة من معنى، قال إنّه رأى ذلك منذ الدّرس الأول في القيادة، لقد كانت أبشعَ سائقة على الإطلاق وكان دوغ مُحبطاً بسبب فشلها الذّريع.

رنّ هاتفي فجأة حينها، توقّفتُ عن سرد القصّة لجاك وقمت بالتقاط الهاتف من حقيبتي وكما هي العادة وجدت الاتصال قادما من رقمي.

- مَن المُتّصِل؟ قالَ جاك.

- لا أحد، مجرد صديق.

- حسناً، أكملي حكاية دوغ.

أخذتُ أتساءلُ بيني وبين نفسي:

تُرى لماذا يتّصل بي الآن؟ ما الذي يريده منّي؟

- حسناً، قلتُ لجاك.

قمت بإعادة هاتفي مرّة أخرى إلى حقيبتي، وأكملت سردَ القصّة لجاك الذي يستمع باهتمام شديد أكثر ممّا كنت أعتقد، رغم تركيزه على القيادة أيضاً بشكل جيد.

عندما أكملت السرد لجاك، رأيت هاتفي يومض، وهناك رسالة صوتية تم إرسالها إليّ.

بعد أن تحدث معي دوغ عن تلك الفتاة التي أهدته الحلوى، وعن فشلها الذّريع في تجربة القيادة، طلب مني أن نغادر، وهو يقول:

- من المستحيل أن ننتظر كلّ هذا الوقت حتى تتوقّف الأمطار مشيراً إلى اتجاهات الطريق التي من المفترض أن أسلكها.

- رائع، قال جاك.

أنا أوشكت أن أنتهي من القصة.

- حسناً، أكملي.

استمرّ دوغ مضطرباً، قلقاً طوال بقيّة الدّرس وكأنّه لا يحبّ التحدّث في أي شيء يتعلّق بالقيادة. أعطاني بعض النّصائح الرّئيسيّة ولكنّهُ كانَ ينظُرُ على مضَضٍ معظم الوقت إلى خارجَ النّافذة، كان ذلك هو أوّل درس وآخر درس قيادة سيّارة أحصل عليه في حياتي كلّها.

كانت الأمطار لا تزالُ تهطلُ، لذا قال لي دوغ إنّه سيُنزلني أمام منزلي. عند وصولنا أمام المنزل أخبرته بأنني سأكمل التدريب على القيادة مع أبي، فقال لي إنّ هذا أفضل ثمّ تركتهُ وركضت إلى منزلي.

بعد دقيقة، عدت إلى الخارج مرة أخرى، كان دوغ لا يزال جالساً داخل السّيّارة، مُمسكاً بعجلة القيادة بكلتا يديه، حينها تقدّمت نحوه، واقتربت منه كثيراً، ثمّ......

- ماذا؟! ماذا فعلتِ بحقّ الجحيم؟ هذا التّصرف الغريب لا يُشبه شخصيّتك، قالَ جاك وهو يستشيط غيظاً.

- لا أعرف لماذا قبّلته، ربما شعرتُ أنّهُ عليّ أن أفعل ذلك.

- هل قابلتِ هذا الشّخص مرة أخرى؟

- لا، تلك هي المرّة الوحيدة.

- حسناً، قالَ جاك.

مررنا بشاحنة بطيئة على الطريق، كنا نتتبع تلك الشاحنة طيلة سردي لقصة دوغ. كانت شاحنة سوداء. حاولت أن أطلّ برأسي من النّافذة لأرى شكل السائق إلّا أنّني لم أتمكن من رؤيته.

- هل تعتقد فعلاً أن ذكرياتنا خيالية؟ سألت جاك.

- الذكريات، جزء من الخيال، إنّها بمثابة قصص نسردها، في كل مرة بشكل مختلف، نحن نعيد كتابتها من جديد في كل مرة، نسردها بطريقة جديدة، معظم القصص نفسها تعتمد على

أحداث وقعت بالفعل، إلاّ أنه يتمّ إضافة الخيال إليها، نعيدُ سردَها بطريقتنا نحن، بينما الحقيقة تحدث مرة واحدة فقط.

هذا أكثر ما يعجبني في جاك، ويجعلني أشعر بالانجذاب نحوه، طريقة تفكيره، وكيف يرى الأمور من منظوره الخاصّ.

أجل، أتّفق معك، الأمر غريب للغاية. نحن مثلاً عندما نشاهد فيلمًا ما، نحن نقول لأنفسنا إنّ هذا غير حقيقي. ورغم أننا نعلم أن هؤلاء الذين يقومون بالأدوار ممثلون، إلا أننا ما زلنا نتأثر جداً بما نراه!

– إذن أنت تظنّ أن القصّة التي سردتها لك هي من وحي خيالي؟ أم أنها حدثت بالفعل؟

– كلّ قصّة تُروى هي من وحي خيالنا، حتى تلك القصص التي حدثت بالفعل.

– حسناً، سوف أفكر جيّداً في ما تقوله.

– هل تعرفين تلك الأغنية «لا تُنسى؟».

– أجل، أعرفها، أجبتهُ.

– إلى أي مدى حقاً هناك أشياء لا تُنسى؟

– لاأعرف، ورغم ذلك أحب تلك الأغنية.

– لا يوجد أي شيء، غير قابل للنسيان.

– ماذا؟

ذلك هو مقصدي من الحديث، كل شيء يحدث لنا، جزء منه قابل للنّسيان، لا يهمّ إن كان جيداً، أو مميّزاً، هذه هي حقيقة الأمر.

لم أكن أعرف بماذا أردّ؟ ما الذي عليّ قوله؟

صمت جاك بعض الوقت، لم يقل شيئاً، فقط كان يلعب بخصلات شعره بطريقة توحي بالنّرجسية بعض الشّيء، كان يلفّها حول سبّابته، ويبتسم لي، تماما كما يفعل دوماً.

- ماذا لو أخبرتك بأنني الشّخص الأكثر ذكاء على الأرض؟

- عذرًا؟

- أنا جادّ، وهذا مرتبط بقصّتك، لذا أجيبي هيّا؟

أشعر كأنّ الوقت الذي مرّ علينا خلال القيادة حوالي ساعة وربما أكثر. ساد الظّلام في الخارج. لم يكن هناك أية أضواء، سوى وميض الراديو، ولوحة السّيارة.

- ما الذي يفترض أن أقولهُ؟

- من الممكن أن تضحكي مثلاً؟ أو أن تقولي إنني كاذب؟ أو أن تغضبي؟ أو أن تتساءلي عن مدى عقلانيّة تصريحي الجريء؟

- أعتقد أنه يفترض بي قول: المعذرة؟

ضحك جاك، ليست ضحكة كبيرة، ولكنّها صادقة كما هي عادته.

- بصدق، لقد سمعتِ سؤالي جيّداً، هيّا أجيبي.

- حسناً، أنت تقول بأنك أذكى رجل على الأرض؟

- غير صحيح، أنا قلت بأني أذكى إنسان على الأرض كما لم أقل إنّي كذلك، ولكنّي سألتك ماذا لو قلت لكِ إني أذكى إنسان على الأرض؟ خذي وقتك.

- جاك، بالله عليك كُفَّ عن هذا.

- أنا جادّ، هيّا أجيبي.

- اعتقدت أنّك تمزح معي.

- حقاً؟

- أجل، كيف ستكون أذكى إنسان على الأرض؟ يبدو الأمر سخيفاً لعدة أسباب.

- ما هي تلك الأسباب؟

- حسناً يا جاك، دعني أسألك سؤالاً، هل تعتقد بأنك أذكى شخص على قيد الحياة؟

- هذه ليست إجابة، هذا سؤال.

- ولكن مسموح لي أن أُجيب على هيئة سؤال.

أعرف أن ردّي على جاك، سيعرّضني للخطر، ما زلت أؤمن بأن ما قاله جاك مزحة، بالتأكيد لم يعنِ ما قاله للتوّ.

- ما الذي يجعل الأمرَ مستحيلاً بأن أكون أذكى إنسان على

الأرض؟

- لا أعرف تحديداً من أين أبدأ.

- هل هذه الإشكالية تحديداً، أنتِ لا تريدين فقط افتراض أو تصوّر أن يكون ذلك الشّابّ العاديّ الذي يجلس إلى جوارك بالسيارة أذكى إنسان في العالم، ولكن لمَ لا؟

- الأمر يتعلق بما هو تعريفك لكلمة ذكي، يا جاك، هل تقصد أنك مثلاً أكثر ذكاء منّي في قراءة الكتب؟ حسناً، ربما، ولكن ماذا عن بناء سور؟ أو متى تسأل شخصاً ما عن شعوره، أو حاله؟ ماذا عن التّواصل مع الآخرين يا جاك؟ العاطفة تشكّلُ الجزء الأكبر من الذكاء.

- بالطبع هي كذلك، هذا كلّه جزء من سؤالي.

- حسناً، ولكني أيضاً ما زلتُ أتساءل كيف يكون هناك أذكى إنسان على الأرض؟

- من المفترض أن يكون هناك شخص ما، بغضّ النّظر عن المنهج الذي يتّبعه، لابدّ أنّه شخص يتفوّقُ على الجميع في كلّ شيء. شخصٌ ما تنطبق عليه كلّ المعايير. ولكن أيّ عبء هذا. من المؤكّد أنّ هذا الشّخص سيبدو كأنّه يحمل عبء العالم على كتفيْه وحده.

مال جاك تجاهي، وهو يقول:

- أروع شيء على الإطلاق هو المزج بين الوعي الذاتي والثّقة

بالنفس. مزجهما معاً على نحوٍ جيّدٍ بكمّيات محدّدة مناسبة من دون الإكثار من أي منهما حتى لا يضرّ بالمزيج. وفي أي وقت إذا رغبتِ في مسابقة «بناء أسوار» من فضلك، فقط أبلغيني، قالَ جاك.

لم يتركني جاك البتّة أنهي قصّتي عن دوغ. عند عودتي إلى الخارج، لم أُقَبِّل دوغ لأنّ التّقبيل يتطلّبُ وجود شخصين يرغبان في ذلك. ما حدث هو أنّني عدت إلى هناك لأعطي دوغ الغلاف الخاصّ بالحلوى خاصتي ولأقرأ ما كتب على غلافها:

«قلبي، قلبي وحده وسط تلك الأمواج المُتلاطمة، يتوق إلى عناق ذاك العالم الأخضر البعيد، مرحباً».

ما زلت أحتفظ بتلك الورقة ولم أتخلص منها مطلقًا. لا أعرف لماذا، لكنها معي، كانت تلك آخر مرة أرى فيها دوغ، ولم أقابله مرة أخرى مجدداً.

– لم يكن مقرّراً وجوده هنا في هذا المكان، إلا أنه كان لديه مفاتيح! لذا بإمكانه فعل أي شيء يرغب فيه.

– ألم يكن من المفترض أن يتمّ طلاء المكان خلال الإجازة؟

– أجل، ولكن ما حدث كان في بداية الإجازة، ومن المفترض أن يتطلّب الطلاء وقتا طويلا حتى يجفّ، كما أن رائحته نفّاذة للغاية ومزعجة.

– هل هي رائحة سامّة؟

- لا أعرف.

- هل سنذهب لرؤية تقرير تشريح الجثّة؟

- سأفكّر في الأمر.

- هل كان الأمر فوضويًا؟

- يمكنك تخيّل مدى فظاعة الأمر.

- سمعت أنهم عثروا على جهاز تنفّس، قناع غاز بجوار الجثّة.

- كانت أجهزة قديمة للغاية، لا نعرف حتى إذا ما كانت تعمل.

- هناك المزيد من التفاصيل الغامضة التي ليس لدينا علم بحدوثها هناك.

- لقد رحلَ الشّخص الوحيد الذي يفترض به أن يخبرنا بما حدث.

بدأ جاك يتحدث عن التقدم في العمر، لم نتناقش معاً في هذا الموضوع من قبلُ، في الواقع لا يمكنني تصوّر نفسي وأنا أتقدّم في العمر.

- في الواقع مسألة التقدّم في العمر تعدّ إحدى الأشياء التي يفسّرها الناس تفسيراً خاطئاً.

- ولكن هل التّقدّم في العمر أمر جيّد؟

- أجل، هو أمر جيّد، مبدئياً وقبل أيّ شيء، التقدم في العمر هو

أمر حتميّ، لا بدّ منه، لكنّنا نظنُّ أنّهُ أمرٌ سيّء بسبب هوسنا الشّديد بمرحلة الشّباب.

- أجل، أتفهّم ذلك، كلّها مراحل إيجابية، ولكن ماذا عن رونقك الشّبابي؟ هل أنت مستعدّ لتجد نفسك أصلعَ وبديناً؟

- بغضّ النظر عما نخسره جسدياً، فنحن نربحه مع التقدم في العمر، إنها صفقة عادلة.

- أجل، أجل أتفق معك.

- في الواقع أنا أتوق إلى أن أتقدم في العمر، ما زلت آمل في الحصول على بعض الشّعر الأبيض والتجاعيد، أشتاق إلى ظهور التّجاعيد التي تنتجُ عن ضحكاتٍ، أشتاقُ إلى أن أكون ذاتي. أشتاقُ إلى أن أكون ذاتي أكثر من أيّ شيء آخر.

- كيف هذا؟

- أرغب في أن أفهم نفسي، وأن أدرك كيف يراني الآخرون؟ المرور بكل هذه التجارب أمر يستحقّ، بغضّ النظر عمّا مررنا به حتى وصلنا إلى تلك النّقطة، أليس كذلك؟

- أعتقد أنّ هذا هو السّبب الذي يدفعُ النّاس إلى التّسريع في الزّواج، إنّهم يدخلون في علاقات مُريعة، لأنّ الخوفَ يتملّكهم بشدّة بمجرّدِ الوقوفِ لمواجهة أنفسهم!

لا أستطيع أن أقول ذلك لجاك، من الأفضل أن يكونوا بمفردهم، لماذا ينفصلُ كلامنا عن حياتنا التي نحنُ بصدد تأسيسها

ويغرقُ في موجاتٍ من الرّوتين الذي اعتدنا عليه، لنؤسّس حياة أخرى مشتركة ومملّة، لماذا نتخلّى ببساطة عن فرصة لقاء أُناس جُدد نظير لقائنا فقط بشخصٍ واحد، وارتباطنا به طيلة حياتنا؟

أعرف أن الارتباط له مزايا عديدة، ولكن أليس من الأفضل أن يكون المرء وحده؟ عندما يكون المرء أعزبَ فإنه يركّزُ على تلك العلاقات التي تُحسّنُ من حياته وتزيد من مستوى سعادته ولكن هل يسيرُ الأمر على الوتيرة نفسها بعد الزّواج؟

- ألا تُمانع أن أخفض صوت الراديو قليلاً؟ سألتُ جاك وقمت بخفض الصوت بالفعل دون أن أنتظر ردّه.

في الواقع، لقد قمت بخفض صوت الراديو مرّات عديدة خلال رحلتنا تلك، لأني في كل مرة أخفض صوتهُ، يقوم جاك لا إرادياً برفع الصّوتِ مرّة أخرى. أعتقدُ أنّهُ لا ينتبه إلى معظم ما أقولهُ، ويكونُ شاردَ الذّهنِ في معظم الأحيان.

في إحدى اللّيالي، تملّكني صداع رهيب، وحينها كان جاك يتحدّث معي عبر الهاتف، حينها طلبتُ منهُ أن يجلب لي أقراصًا مهدّئة للصّداع، إلا أنه عندما جاء، لم يحضر معه أي شيء، بل نسي القيامَ بذلكَ كلّيّاً، أعتقد أنه كان شارد الذّهن حينها أيضا، أستطيع أن أؤكد بأن جاك سيصبح أستاذاً جامعياً أحمَق.

عندما وصل جاك ليلتها إليّ، لم يتحدث عن الأقراص، ولم يعطني إيّاها، وأنا لم أطلبها منه أيضا ولم أذكّره بها حتى لا أشعره

بالحرج أو بالذّنب، بل تحدّثنا لبعض الوقت عن موضوع آخر وعندما أنهينا حديثنا، صرخ فجأة وهوَ يقولُ: أقراصك!

دفع جاك وهوَ يضعُ يدهُ داخل جيبهِ ومدّها إليّ قائلاً: ها هي أقراصك.

- شكراً لك، قلتُ لجاك.

كان جاك قد وضع الأقراص في علبة أخرى، وغلّفها بشريطٍ لاصقٍ أنا لم أقل له أي شيء سوى "شكراً". في الواقع هي حركة مميّزة من جانبه. لم يكن جاك يفعل ذلك حتى لنفسه ولكنّه يفعله ذلكَ من أجلي.

لا أنكر أن تلك الفعلة البسيطة التي قام بها جاك، غيّرت من تفكيري في تلك الليلة، حيث كنت أفكّرُ حينها في الانفصال عنه، ولكنّ موقفهُ تسبّب في تأجيل قراري بالانفصال عنه.

هل التفاصيل الصّغيرة البسيطة كافية؟ التصرّفات البسيطة، والإيماءات البسيطة التي تجعلنا نشعر بشعور جيد تجاه أنفسنا؟ وتجاه الآخرين؟

التفاصيل الصّغيرة تجمعنا، تجعلنا نراها وكأنها كلّ شيء، نحن نؤمن بأنها تجعلنا نفهم الحياة بشكل أفضل، وتزوّدنا بالرّاحة والسعادة.

الفكرة هي أننا سنكون بحالٍ أفضل مع وجود شخص نقضي بقيّة حياتنا معه. تلك الفكرة ليست حقيقة غريزيّة، لكنها مجرّدُ

تصوّرٍ، نحنُ نرغب في التّصديق بحقيقة ذلكَ الأمر.

أن تتنازل عن عزلتك، عن استقلاليتك، هي تضحية أكبر بكثير مما نعتقد.

أن تتشارك عادتك، أو حياتك مع شخص ما، أكثر صعوبة من أن تكون بمفردك.

أعتقد أن الارتباط يبدو أمرًا مُريعًا، أليس كذلك؟

أن تجد شخصاً ما تقضي حياتك معه، تشيب معه، وتتغير ملامحك معه، تتقاسم معه الاحتياجات والآمال.

المضحك في الأمر، أنّ جاك فتح معي موضوع الذّكاء مبكّراً. يبدو سؤالهُ عن أذكى إنسان في العالم بمثابة الإجابة عن أفكاري التي تدورُ في خاطري، فهوَ يعرف جيداً أنّني كنت أفكّر منذ فترة طويلة في ذكائهِ وكنتُ أتساءلُ هل يكفي الذّكاء للارتباط أم أنّ الذّكاء قد يتلاشى مع مرور الوقت؟ أليس من المحتمل أن يقودنا ذكاؤنا إلى المزيد من الألم والعزلة والندم؟

لا أنكر أنّ ذكاء جاك جذبني في البداية، ولكن هل يكفي الذّكاء للدّخولِ في علاقة جدّيّة تدوم سنواتٍ طويلةً؟ لا أتحدّث هنا عن شهور أو أيّام، هل المعيشة مع شخص أقلّ ذكاء قد تبدو أسهلَ أم أصعبَ؟

هل الأشخاص المنطقيّون أو الأذكياء لديهم القدرة على التّعاطف والعطاء؟

أم أنهم قادرون فعلاً على ذلك؟

على أية حال، هذا يختلف عن ذكاء جاك، لأنّه مثقّفٌ ومُفكر. هل يكفي ذلك للدّخول في علاقة معاً تستغرق حوالي عشرين أو ثلاثين أو خمسين عامًا؟

- عرف أنك لا تحبّ أن تتحدّث كثيراً عن عملك، ولكنّني لا أستطيعُ أن أتخيّل المختبر الخاصّ بك، هل يمكنك أن تصفه لي؟

- ما الذي تقصدينه؟

- الأمر شاقّ بالنسبة إليّ أن أتخيّل أين تعمل؟

- تخيّلي فقط أيّ مختبر هكذا يبدو الأمر.

- هل تفوحُ روائحُ الموادّ الكيميائية في المخبر؟ هل يوجد المزيد من الناس حولك؟

- لا أعرف، ربما عادة.

- ولكن ألا تعاني من تشتّتٍ في التّركيز؟ أم أنّك تستطيع التركيز رغم التشتّت؟

- في العادة تسير الأمور بشكل طبيعيّ، أواجه أحياناً بعض عوامل تشتيت الانتباه مثل أن يتحدث زميلي على الهاتف ويضحك. حينها أقول له: اخرس، وبهذا تنتهي المأساة.

- أعرف كيف تبدو وأنت تعمل على شيء ما.

- في أوقات عملي، لا أرغب حتى في سماع صوت عقارب

الساعة.

- خذني في جولة إلى هناك، بإمكانك أن تفعل ذلك وأنت تقود، صف لي المختبر بالتّفصيل.

- ما الذي ستريني إياه إذا قمت بزيارة المعمل؟

- في البداية سوف أصطحبك إلى غرفة علم دراسة البلّورات.

- حسناً.

- سأريكِ أيضاً غرفة بلورة الروبوتات والتي يمكننا من خلالها اكتشاف المزيد عن عالم الفضاء.

- حسناً، أحبّ سماع ذلك.

- سأريكِ أيضاً غرفة المجهر، وآخر الاكتشافات التي توصلنا إليها.

- أجل، أحبّ ذلك أيضاً.

أحبّ أن أتأمل وجهه، وهو يتحدث عن عمله، أحبّ تلك الحماسة في عينيه.

بإمكاني أن أصارحه بكلّ شيء الآن، بإمكاني أن أعترف له بكلّ ما أشعر به، حياله، وما أفكّر في شأنه، نحن وحدنا الآن داخل السّيّارة. يمكنني أن أفعلها. يمكنني أن أصارحه بأنّني أضع نفسي مركزاً للكونِ في علاقتنا، وأفكّرُ في نفسي فقط، أم أنّه عليّ أن أكون صادقة معه وأخبره بأنني أفكّر في إنهاء علاقتي به؟ لكنّني لم أقل له

شيئاً من هذا.

ربما رؤية والديه، التعرف عليهما، معرفة أين نشأ، وكيف نشأ، ربما هذه الأشياء تساعدني في اتخاذ قراري.

- شكراً لك على اصطحابي في تلك الجولة المُتَخيَّلة للمختبر الذي تعمل فيه، قلتُ لجاك.

أتأمّل وجه جاك وهو يقود السيّارة، شعره الفوضوي، جاذبيّته في أثناء القيادة وكل تلك التفاصيل الصّغيرة التي تجذبني إليه.

نحن نعرف بعضنا منذ أسبوعين، نرى بعضنا يوميًّا منذ ذلك الحين، أحياناً يتّصل بي، أحياناً أراسله، لكنّ جاك قلّما يُراسلني، لأنّه يكره المراسلة ويفضّل التحدّث مع الشّخص الآخر والاستماع له باهتمام، جاك يقدّسُ الحوارَ والمناقشَة.

أشعر بالغرابة عندما أكونُ بمفردي، رغم أنّني اعتدتُ على الوحدة من قبلُ ولكن منذ تلك اللّحظة التي أصبحت فيها على علاقة مع جاك، أصبحتُ أشعرُ بأنّني أفتقدهُ كلما كنتُ وحيدة ولو للحظةٍ من الزّمن. أعلمُ أنّ هذا سخيف ولكنّ هذا ما يحدث.

إن معرفة شخص ما أمر معقّد للغاية، مثلاً التّفاصيل التي أعرفها عن جاك أنه لا يحبّ اللحم المطهيّ، يتجنّب استخدام الحمامات العامّة، يكرهُ رؤية النّاس ينظّفون أسنانهم بأظفارهم بعد تناول الغذاء. تلك المعلومات البسيطة ليست مثل تلك المعلومات الأكبر التي تنكشف حقيقتها بعد وقت طويل من معرفة شخص

ما.

بعد أن أمضيتُ وقتاً طويلاً بمفردي، أستطيع القول بأنني أعرف جاك جيّداً. في بداية تعارفي به، كنت أفكّر فيه بشكل جنونيّ، حتى في تلك الأوقات التي لا يكون فيها جاك معي، اعتدت أنا وجاك على افتراش الأرض والمكوث معاً فتراتٍ طويلةً والتحدّث معاً ساعاتٍ طويلةً، كنا نتحدّث في مواضيعَ مختلفةٍ، يبدأ أحدنا أي موضوع، ونستمرّ في المناقشة بشأنه طيلة الوقت، بإمكاننا اختيار أيّ موضوع، والمضيّ قُدُماً، تبدأ المناقشة بسؤال، ثم سؤال يقود إلى سؤال، وهكذا بإمكاننا قضاء ليلة كاملة نتحدّث فقط.

ولا تعتمد محادثاتنا على الموافقة فحسب، كثيراً ما نختلف في وجهات النّظر، طالما شعرت بأن علاقتنا فريدة، وما زالَ يسكنني هذا الشّعور.

- يجب أن يستعيد كلّ شيء التوازن اللازم كلّه، هكذا يستقيم الأمر، كلّ شيء حولنا رقيق للغاية. التّوازن أمر لابدّ منه لكلّ شيء حولنا.

- أجل، أتّفقُ معك في الرّأي. أقولها وأنا أفكّرُ في علاقتنا وما أفكّرُ فيهِ بشأنِ إنهائها.

- أشعر أحيانا كأن هناك تيارا كهربائيا يسري في جسدي، أشعر بأنَّ هناك طاقة داخلي وداخلك وأعتقد أنّهُ شيء يتطلب منّا درجة كبيرة من الوعي. أليس كذلك؟ أنا آسفة يبدو أنني أثرثر على

الدوام.

أخلع حذائي، وأضع قدمي أسفل لوحة القيادة، أسترخي تماماً، أعشق ذلك الشعور الذي يلفّني في أثناء قيادة السّيّارة. الأمرُ شبيهٌ بتأثير المُخدّر، يجعلني أرغب في أن أغفو قليلاً.

- ما الذي تعنيه بالتيار؟ أسأل جاك وأنا أغلق عينيّ.

- تماماً كهذا الشّعور بيني وبينك، هذا التدفّق العاطفي.

- هل اختبرت من قبل الشّعور بالإحباط أو أيّ شيء من هذا القبيل؟

لسنوات أشعر أن حياتي مُملّة وفاترة. لا وجودَ لسببٍ محدّدٍ. بدت حياتي بلا ملامح، وكأنها تسير بشكل اعتباطيّ وغير مدروس، كنت أشعر بأنني ضائعة، وبأنّ حياتي غير ضروريّة وبلا قيمة.

- أنا آسف للغاية، أنا أفكر فقط، أنا أفكّر فقط.

- في أيّ شيء تفكر؟

- أحياناً أشعر بالحزن من دون سبب منطقيّ، هل هذا يحدث لك أيضاً؟

- لا يحدثُ ذلكَ بالطّريقة نفسها، فقط اعتدتُ أن أقلق وأنا طفل.

- أجل، اعتدت أن أقلق بشأن بعض الأشياء أو الأشخاص، أن

أقلق من الغرباء مثلاً ومن الإصابة بآلام المعدة وغيرها من الأشياء.

- كم كان عمرك حينها؟

كنت صغيراً، في الثّامنة أو التاسعة، عندما كان يحدث لي ذلك، كانت أمّي تعدّ لي ما تسمّيه «شاي الأطفال» والذي كان يملؤهُ اللّبنُ والسّكر ثم تجلس إلى جواري وتتحدث معي.

- عن أيّ شيء كانت أمك تتحدث معك؟

- عن الأشياء التي أشعر بالقلق حيالها عادةً.

- هل تتذكّر أيّ شيء بالتّحديد؟

- لم أشعر بالقلق يوماً تجاه موتي، ولكنّي شعرت بالقلق الشّديد تجاه موت أحد من أفراد عائلتي، كذلك كان لديّ قلق شديد من أن يسقطَ أحد أطرافي فجأة.

- حقًّا؟

- أجل، في طفولتي كان لدينا حَمَل. بعد يومين من ولادته، قام أبي بربط حبال مطّاطية حول ذيله وقام بإحكامها جيّداً، بطريقة كافية حتى يمنع تدفّق الدّم، وبعدها بأيام قليلة، سقط الذّيل من تلقاء نفسه، الأمر ليس مؤلماً بالنسبة إلى الحِملان، ليس لديهم أي فكرة عمّا حدث.

- ذات مرة، كنت أتجوّل في الحقول، ووجدت على الأرض،

ذيل حَمَل مذبوح، حينها تملّكني الذّعر، وتساءلت لماذا يسقط جزء مهمّ من جسدِ الحَمَل هكذا ببساطة؟ وأخذت أقلق بشأن سقوط أحد أطرافي فجأة. كنتُ أخشى أن أنام وأنا أرتدي جواربي الضّيّقة، وعندما أستيقظ أجد أنّ أقدامي سقطت على الأرض فجأة.

- يا لها من فكرة مُخيفة للغاية.

- آسف للغاية. لقد كانت إجابتي أطولَ بكثيرٍ من سؤالك وردًّا نهائيًّا على سؤالك. لست مُحبَطاً.

- لكنك حزين؟

- أجل.

- وما هو الفارق بين الحزن والاكتئاب؟

- الاكتئاب مرض خطير، مؤلم جدًّا، ولا تستطيع أن تُشفى منه بين ليلةٍ وضحاها، تماماً مثل مرض السّرطان، أمّا الحزنُ فشعور طبيعيّ للغاية. الحزن يعتبر مُكمّلاً للسّعادة، وجودُهما معاً مهمّ وضروريّ وطبيعيّ للغاية. هذا ما أقصده.

- هذا يعني أن بعض الناس هذه الأيام إن لم يكونوا مُحبَطين، فهم بالتّأكيد يشعرون بالحزن، ألست متّفقاً معي؟

- لا أعتقد أنني قلتُ ذلك، ما قلتِه يعني إمّا أن تكون حزيناً أو سعيداً طيلة الوقت وهذا أمر مستحيل الحدوث.

- ما أرغب في قولهِ يا جاك هو إننا نعيش في زمنٍ حزين للغاية. زمنٌ لا يجعلني شخصياً أشعر بالحماسة والفرح على الإطلاق.

الأمر يتعلّق بالحضارة، بالحداثة التي انتقل إليها البشر، تغيّر القيم، وما أصبحنا نقدّسه الآن، هل هناك نقص في حالات التعاطف؟ الاهتمام بشؤون الآخرين؟ بالتواصل؟ كلّها أمور مرتبطة ببعضها البعض.

- كيف بإمكاننا تحقيق التميّز، والتألق وكيف بإمكاننا تحقيق رسالاتنا في الحياة إن لم يكن لدينا شعور بأن هناك ما هو أكبر من التّفكير في حياتنا الخاصة فقط؟

- إنّ السّعادة في رأيي تعتمد على وجود الآخرين، وكما يتطلّب الحزن وجود السّعادة، تتطلّب السّعادة وجود الحزن.

- أجل، أفهمك.

- حقيقة الحياة والوجود والعلاقات، كلّها أشياء مُحزنة، أشياء حقيقية، وكلّما أخبرنا أنفسنا بأننا نرغب في أن نكون سعداءَ، ساء الأمر وأصبحنا أكثر تعاسة وهكذا. ما أقوله لكِ ليس من اختراعي، هي أمور معروفة، أنا لا أريد أن أبدو متحذلقاً أو شيء كهذا، نحن نتحدث فقط.

- أجل نحن نفكر معاً.

رنّ هاتفي فجأة؛ مُحَطِّماً الصّمت الذي ساد.

- أنا آسفة، إنها صديقتي تتّصلُ مرّة أخرى. قلتُ لجاك.

كنتُ أكذبُ عليه. لقد كان الرّقم الذي ظهر على شاشة هاتفي رقمي أنا!

- ربما عليكِ أن تردّي عليها.

- بصراحة لست في مزاج يسمح لي بالكلام، أنا واثقة من أنها سوف تتوقف عن الاتصال بي، أعرف أنها لا تريد أن تتحدث إليّ في شيء مهمّ.

وضعت هاتفي داخل حقيبتي، ثم التقطته مرة أخرى، عندما رأيته يومض، كان هناك رسالتان من ذلك الشخص المجهول. شكرًا للربّ لأن جاك رفع صوت الراديو مرة أخرى، الآن يمكنني الاستماع لتلك الرسائل، من دون أن يسمعها جاك.

لم يكن ذلك الشخص المجهول يتحدث في الرسالة الأولى، فقط كانت عبارة عن أصوات وضوضاء، كان هناك صوت مياه جارية، وصوت شخص ما يُغلق الباب، بالتأكيد.. إنّه هو، من المفترض أن يكون هو.

- هل هناك شيء ما؟

- لا، قلت لجاك وأنا أحاول أن أبدو طبيعية رغم ارتباكي وتَورّد وجنتيّ.

يجب أن أجد حلاً لذلك الأمر عند عودتنا من تلك الزيارة، يجب أن أخبر أحدًا ما، يجب أن أتحدث مع أحد ما حول ذلك

المتَّصِل المجهول، ولكن لا يمكنني أن أتحدث مع جاك حول هذا الأمر لأنه سيعتقد بأنّني كذبت عليه. وحينها لن تسير الأمور بشكل جيد بيننا.

- مكالمتان وعدة رسائل، وتقولين إنّهُ ليسَ شيئًا مهمًّا؟

- البشر يبالغون في بعض الأحيان كما تعلم، سوف أتحدث إليها غداً، بطارية هاتفي على وشك النفاد على أي حال.

الفتاة الأخيرة التي كان جاك على علاقة معها، كانت طالبة دراسات عليا، تدرس في قسمٍ آخرَ.

لقد رأيتها من قبلُ، تبدو جميلة وظريفة وذات جسد رياضيّ ممشوق. شعرها أشقرُ، كما أنها كانت عدّاءة، أخبرني جاك بأنهما أصبحا صديقين، ولكنهما ليسا صديقين مقرّبين كما أنه أخبرني بأن آخر مرة التقاها كانت قبل أن نلتقي بأسبوع.

قد يظنّ البعض أني أشعر بالغيرة، ولكني لا أشعر بالغيرة على الإطلاق، أنا فقط أرغب في معرفة المزيد حول علاقتهما، فأنا لست عدّاءة أيضا.

أعرف أنّ ما أقوله قد يبدو غريباً. لكنّني أودُّ أن ألتقيها وأن أتحدث معها حول جاك، أريد أن أعرف منها ما الذي جذبها إلى جاك، ولماذا لم تستمرّ علاقتهما؟ ما الذي حدث؟ هل كانت تفكّر في إنهاء علاقتها به مثلي؟ لا أعرف. إن كان ما أفكّر فيه منطقياً أم جنونياً، هل التفكير في التحدّث مع الحبيبة السّابقة لحبيبك الحالي

فكرة عاقلة؟

سألت عنها جاك عدّة مرات، ولكنّه كان خجولاً، لم يقل لي الكثير، كلّ ما قاله لي إنّ علاقتهما لم تستمرّ طويلاً، وأنها لم تكن علاقة جادة، لذا من الأفضل أن أتحدّث إليها، وأن أستمع لأسبابها.

وحدنا داخل السيارة في منتصف طريق مهجورة، وها قد حان الوقت المناسب للحديث حول ذلك الموضوع.

- إذن كيف انتهت علاقتك مع حبيبتك السّابقة؟

- علاقتنا لم تبدأ حتى تنتهي، كانت مجرّد علاقة ثانويّة عابرة.

- لكنك بالتأكيد لم تكن تفكر هكذا عند دخولك في تلك العلاقة منذ البداية. لماذا لم تنجح علاقتكما؟

- لأنها لم تكن علاقة حقيقية.

- كيف عرفت ذلك؟

- المرء يعلم دائماً إن كانت العلاقة حقيقيّة أو مزيّفة.

- ولكن كيف بإمكاننا معرفة إن كانت العلاقة حقيقية أم لا؟

- هل تسألين بوجه عامّ، أم أنك تسألين عن تلك العلاقة بشكل خاصّ؟

- أسأل عن تلك العلاقة تحديداً.

- لم يكن هناك شراكة، علاقة خالية من الشّراكة هي علاقة تنقصها الجدّيّة.

- لست واثقة من أنني أتّفق معك في هذا، ولكن ماذا عن مفهوم «علاقة حقيقيّة؟» كيف يمكننا أن نعرف أن العلاقة باتت حقيقيّة؟

- وما الذي تعنيه كلمة «حقيقيّ»؟ يصبح الأمر حقيقياً عندما تحفّه المخاطر، عندما يصبح على المَحَكّ.

صمتنا وقتًا.

- هل تتذكر تلك المرأة التي تعيش في الجهة المقابلة من الشارع التي أخبرتك عنها سابقاً؟

أعتقد أننا اقتربنا الآن من المزرعة، لم يقل لي جاك شيئاً بخصوص ذلك، ولكنّني أخمّنُ في أنّنا اقتربنا منها. استغرقت رحلتنا ساعتين حتى الآن، من المؤكد أننا في الطريق إلى هناك.

- مَن تلك المرأة؟

- المرأة العجوز التي تعيش في الجهة المقابلة من الشارع، ألا تتذكرها؟

- أجل، أتذكرها، قال جاك دون اكتراث.

- قالت لي تلك المرأة إنّها، وزوجها لا ينامان معاً، لم تكن تقصد أنهما لا يمارسان الجنس ولكن ما قصدته المرأة أنهما لا ينامان معاً

على الفراش نفسه؛ لأنّ كليهما يرغب في أن يحصل على مساحته الخاصة في أثناء النوم. قالت لي إنّهُ لا معنى أن ينام الزوجان بجانب بعضهما بعضا في حين يزعج أحدهما الآخر أثناء النّوم، فمثلاً قالت لي بأن زوجها كان يشخر بصخب، ويحدث أصواتاً مزعجة في أثناء النوم، لذا كان عليهما أن يبحثا عن حلّ يتجاوزان به الأمر.

- يبدو هذا منطقياً، عندما يتعلق الأمر بأن يكون وجود أحد الزّوجين مُدَمّرا، حينها يكون النوم بمفردك خياراً جيداً.

- هل تعتقد ذلك حقاً؟ نحن نقضي نصف حياتنا نائمين.

- قد يكون هذا مُبَرّراً للنوم بمفردنا، أن نبحث عن وضعية مُريحة وجيدة لنومنا طيلة تلك الفترة.

- ولكن الأمر لا يتعلق بالنوم فقط، ولكنه يتعلق بمراقبتك لشخص آخر يُشاركك النّوم.

- الأمر يتعلق بالنّوم فقط، يقول جاك مصرًّا على ذلكَ.

- لا، لا يتعلق بالنوم فقط.

- آه، لقد فقدت تركيزي.

- ألا تراقبني في أثناء النوم؟

- لا أعرف، أنا أنام فقط.

- ولكني أراقبك، وأنت نائم.

قبل يومين، لم أستطع النوم، كنت أفكر كثيراً لأسابيع طويلة، بينما كان جاك ينام بسهولة ملحوظة، كان يغطّ في نومهِ ساعاتٍ دون قلق أو أرق.

يمكنني الاعتراف بأني دخلت في تلك العلاقة، لأني أتوق إلى أن يعرفني شخص ما، أن يعرفني معرفة جيدة، أن يعرفني ربما أكثر من نفسي، وإلا فلماذا نرتبط بشخصٍ ما؟ الأمر أكبر بكثير من ممارسة الجنس. دخولنا في علاقات طويلة المدى يعنى أن نجد ذلك الشّخص الذي يفهمنا منذ النظرة الأولى، ذلك الشّخص الذي يستطيع قراءة ما نفكّر فيهِ، من دون أن نتحدث عنه، ذلك الشّخص الذي نعتمد عليه ويعتمد علينا.

هذا النوع من التواصل يختلف عن ذلك التواصل البيولوجي بين الآباء، وأطفالهم، هذا النوع من العلاقات يجب أن يكون من اختيارنا.

أخذتُ أتأمّلُ جاك في تلك الليلة، كان وجهه يبدو طفولياً، لا يعضّ شفتيه وهو نائم، ولا ترتعش جفونه كذلك، يبدو جاك شخصاً مختلفاً وهو يغطُّ في النّوم.

ولكن أليست الوحدة، هي الفرصة الوحيدة التي نستطيع من خلالها أن نحصل على النسخ الأكثر صدقاً من ذواتنا، دون أن نكون مرتبطين بشخصٍ ما ودون أن نجد أنفسنا مُلَوَّثين بوجوده أو ظنونه؟

نحن في حاجة إلى معرفة أنفسنا جيداً، وكيف يمكننا ذلك دون أن نحظى بتلك العزلة؟

أنا لا أفكر في التوصّل إلى حلّ مع جاك، للإبقاء على تلك العلاقة، ما أفكر فيه صدقاً هو إنهاء تلك العلاقة.

الأمر الذي لا يبدو منطقياً في رأيي، تلك الأرقام الهائلة للأشخاص الذين يسعون إلى الدخول في علاقات جادّة طويلة الأمد، إذا ما قارنّاها مع الدراسات التي تتحدّث عن فشل غالبيّة الزيجات. ورغم ذلك ما زال هؤلاء الأشخاص يعتقدون أنّ الزواج، هو الوضع الطبيعيّ للبشر.

أخبرني جاك ذات مرة بأن الصّورة الوحيدة التي ما زال يحتفظ بها في مكتبه داخل المعمل، هي صورته وهو يبلغ خمس سنوات، كان لديه شعر أشقرُ مُجَعّد، وخدود مُمتلئة، ولكن كيف كانت لديه خدود مُمتلئة في يوم ما؟

قال لي إنّ أكثر ما يحبّه في تلك الصورة هو أنها تذكّره بنفسه الحقيقيّة، ولكن كيف ذلك، وقد تغيّر جاك من الناحية الشّكلية من النقيض إلى النقيض، وكأنَّ كلّ خلية كانت في تلك الصورة قد تَبدّدت.

تلك التغيرات الجسدية التي تطرأ علينا، سواء أكانت تغيرات نحو الأفضل، أو الأسوإ، ولكننا في كلتا الحالتين نتقبلها ونمضي.

هل من الأفضل أن نكون وحدنا أم أن نرتبط بأحدهم؟

مضت ثلاث ليالٍ وأنا أفكر، بينما جاك غارق في غيبوبته تلك، ثلاث ليالٍ وأنا أبحث عن ضوء وسط كل هذا الظلام الدامس.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، كما هو الحال مع باقي الليالي. كم تمنّيت أن يتوقف عقلي عن التفكير، كم تمنّيتُ أن أستطيع إخماد نيرانه وإسكات ثرثرته.

- ها نحن قد وصلنا، لدينا فقط خمس دقائق، قال جاك

أجلس وأسترخي قليلاً، وأنا أتثاءب قائلة:

- كانت رحلة سريعة للغاية، شكراً لك على دعوتي.

- شكراً لقدومك، قال جاك، ولسبب غير مفهوم وغامض، قال لي: يجب أن تعلمي أيضًا أن الأشياء تصبح حقيقة أيضاً عندما نفقدها.

- عُثِر على الجثّة في خزانة الملابس.

- حقاً؟

- أجل، عثروا عليها في خزانة ملابس صغيرة، لا تكاد تكفي لتعليق القمصان والمعاطف وبعض الأحذية. كانت الجثة محشورة في الداخل، وكان الباب مُغلقاً.

- أنا حزين جداً وغاضب.

- لماذا لم يحاول أن يتحدث إلى شخصٍ ما؟ على حدّ علمي إنه كان يملكُ زملاء في العمل. لم يكن يعمل في مكان مهجور، كان حوله عديد الأشخاص طيلةَ الوقت.

- أعرف، كم كنت أتمنّى ألاّ يحدث هذا على الإطلاق.

- بالتأكيد، جميعنا نتمنّى ذلك.

- هل بإمكاننا أن نعرف المزيدَ عنه؟

- نحن لا نعرف عنهُ الكثير، فقط إنّهُ كان ذكيًّا ومثقفًا للغاية. كانت لديه حياة مهنية واعدة تتعلق بالعمل الأكاديمي، كان حاصلاً على درجة الدكتوراه. لكن الأمر لم يسر على نحوٍ جيّد، وها هو ينهي حياته هنا.

- ألم يكن متزوّجاً؟

- لا، لم يكن متزوّجاً، ليس له أطفال أو زوجة أو أي أحد، من النادر هذه الأيام أن ترى شخصاً مثله يحيا وحيداً تماماً.

كانت رحلة السيارة طويلة وبطيئة للغاية، حتى وصلنا إلى طريق المزرعة المفروش بالحصى، حيث صفوف الأشجار على الجانبين. بعد مضيّ دقيقة، كان ثمّة مَطَبٌّ في الطريق، وكان الحصى والطين يُسحقان أسفل عجلات السيارة.

يقعُ منزل عائلة جاك في نهاية الطريق، فهو منزل مصنوع من الطّوب، لا يبدو حجمه ضخماً إذا تأملته من بعيد.

أوقفنا السيارة على الجانب الأيمن من المنزل، لم يكن هناك سيارات أخرى على مرمى البصر، ألا يمتلك والداه سيارة؟

كان هناك ضوء خافت يتسلّل من مطبخ المنزل، بينما كانَ باقي المنزل يغرقُ في ظلامٍ دامس.

من المؤكد أن هناك موقدا خشبيا في الداخل، لأني عندما خطوت إلى خارج السيارة، حاصرتني رائحة الدّخان.

ربّما كان هذا المكان جميلاً ذات مرّة، ولكنّه بات الآن قديماً ومترهّلا.

كان بإمكانهم إعادة تجديد المنزل، عن طريق بعض الدّهن، وإعادة إحيائه مرّة أخرى، العَفن يحاصر شرفة المنزل، وحتّى أرجوحة الشّرفة كانت ممزّقة ومتهالكة.

- لا أرغب في الدّخول إلى المنزل الآن، بعد رحلتنا الطّويلة تلك بالسّيارة، هل لنا أن نقوم بجولة في القرية؟ قال جاك.

- ولكنّ الظّلام دامس للغاية، لا يمكننا رؤية الكثير، أليس كذلك؟

- على الأقلّ لاستنشاق بعض الهواء العليل، النّجوم تتألّق في تلك اللّيالي الصّيفيّة، يكون شكلُها بديعًا للغاية. طالما عشقتها وأدمنت تأملها وكذلك تأمل مشهد السحب الناعمة التي تغطي السماء، أعرف أن هذا قد يبدو سخيفاً، لكني أحبّ رؤيتها.

- هذا ليس سخيفاً على الإطلاق، من الرائع أنك تتأمل تفاصيلَ

صغيرةً، لا ينتبه إليها الآخرون.

- طالما اعتدت على ملاحظة تلك التفاصيل والانتباه إليها، لا أعرف كيف ومتى تغيرت فجأة؟ ولكن ما يهمّ هو أنني هنا الآن وأرغب في رؤية مثل تلك المشاهد العذبة.

تمنّيت لو كان جاك يرتدي قفّازين، كانت يداه شديدتيْ الحُمرَة من شدّة البرودة.

بدا المسار الحَجريّ الذي سلكناه من الممرّ حتى الحظيرة مُتهالكًا وغير مُنتظم. أنا أحبّ الهواء المُنعِش، ولكنّ هواء تلك الليلة كان شديدَ البرودة إلى درجة التَّجَمّد.

قدماي مُخدّرتان تماماً، أعتقد أنه يجدر به الآن التوجّه إلى داخل المنزل، وإلقاء التّحيّة على أهله، هذا ما أتوقّعه، لأنّني لم أرتدِ ملابسَ ثقيلةً لسوء الحظّ. الآن يمنحني جاك ما يسمّيه «جولة مختصرة».

في ليلة عاصفة شديدة البرودة كتلك. التجوّل لاستكشاف المكان أمر شديد الغرابة.

أعرف أن جاك يرغب في أن يجعلني أتأمّل تلك التّفاصيل التي يحبّها ويفتقدها.

أشار جاك إلى بستان التّفاح، واصطَحبني كذلك إلى بساتين الخضروات الأخرى، ثم توجهنا إلى حظيرة قديمة.

- الخراف في الدّاخل، من المُحتَمل أنّ أبي قدّم لها الحبوب منذ ساعة تقريباً، قال جاك.

أخذني جاك إلى الدّاخل، حيث كانت الإضاءة خافتة للغاية، معظم الخِراف مُستَلقية على الأرض، حيثُ بدت كما لو أنّها بلا روح وهي تنظرُ إلينا من شدّة البردِ دون مبالاة.

الحظيرة مصنوعة من الرّقائق والأعمدة الخشبيّة، أمّا السّقفُ فمكوّنٌ من صفائحَ معدنيّةٍ في عدّة. كانت بعض الجُدُران مُتَصدّعة وتحتوي على ثقوب واسعة كبيرة.

لم تكن الحظيرةُ كما تخيّلتها من قبلُ، ولكنّني لم أخبر جاك بخصوص ذلك الأمر، لقد كانت موحشَةً ومُملّة وكانت تنبعثُ منها رائحة كريهة.

– هذا هو وقت المضْغ الخاصّ بها، إنّها تمضغ طعامَها في هذا التّوقيت تماماً كما نمضغ نحن العلكة، قالَ جاك مُشيراً إلى الخِراف.

– ذلك الوقت يخلو من المتعة هنا في الحظيرة.

لم ينطق جاك بحرف بعد ذلك، مضى في طريقه دونَ أن يهمسَ بشيء. كان هناك شيء ما يقلقه ويزعجه. كانت هناك جثّتا خروفين على أحد جوانب الحظيرة، انتشرَ صوفهما في كل مكان.

مخلوقات ضعيفة لا حياة فيها مُكَدّسَة داخل الحظيرة. لا، ليس هذا ما كنت أتوقع رؤيته هنا حتى أنه لا يوجد دمٌ. لا توجد رائحة ولا توجد حشرات. لا توجد علامات على تحلّلها ولا يوجد ما يشير إلى أنّ تلك الكائنات كانت يوماً مّا كائنات حيّة تعيش في هذا المكان. بدت كما لو أنّها مصنوعة من موادّ صناعية وليس من موادّ

عضويّة.

أريد أن أحدّق في تلك الكائنات، ولكنّي أرغب في أن أركض سريعاً خارج هذا المكان. لم يسبق لي رؤية خِراف ميّتة من قبل، باستثناءِ تلك المطبوخة في طبقي مع الثوم والشّمَر.

للمرة الأولى في حياتي، أدرك أن هناك درجات متباينة في الموت، كما أن هناك درجات متباينة من كل شيء، درجات متباينة في الحياة، وأخرى في الوقوع في الحب وأخرى في الزواج وأخرى في الطّلاق.

تلك الخِراف لا تسير في أثناء النوم، تلك الخِراف ليست مُحبَطة أو مريضة، تلك الخِراف لا تفكّر في الاستسلام، تلك الخِراف مَبتورة الذيل وميّتة، ميّتة دون شك، ميّتة بنسبة مائة في المائة.

- ما الذي سيحدث لتلك الخِراف؟ سألت جاك الذي كان يمضي إلى الأمام مُسرعاً. من المؤكد أنه جائع الآن ويرغب في الدخول إلى المنزل.

كانت الرّيح تعوي في الخارج.

صرخ جاك في الفضاء: ماذا؟ هل تقصدين الخِراف الميتة؟

- أجل.

لم يُجبني جاك، مضى إلى الأمام دون أن ينبس ببنت شفة.

لا أعرف لماذا لا يردّ جاك عليّ، أنا مَن رأيت تلك الخِراف الميّتة، كان بإمكاني تجاهل المشهد، لكنّي بمجرد أن رأيتها، لم أستطع

تجاوزها دونَ أن أطرحَ سؤالاً.

- هل سيحدث لتلك الخِراف أي شيء لاحقاً؟

- لا أعرف، ما الذي تقصدينه بذلك، الخِراف ميتة فعلاً!

- هل ستبقى الجثثُ هكذا؟ أم أنّه سيتمّ دفنها؟

- ربما سيتمّ إحراق جثثها في وقتٍ ما، عندما يصبح الطّقس أكثرَ دفئاً مع حلول الربيع، جثثها مُتَجمّدة الآن على أيّ حال. الخِراف الميّتة لا تختلف في رأيي كثيراً عن الخِرافِ الحيّة، التي تتمتّع بصحّة جيّدة. الفارق الوحيد هو أنّها ميّتة.

أهرول للّحاق بجاك، أحاول بكلّ طاقتي ألاّ أنزلقَ أو أسقطَ.

ابتعدنا الآن كثيراً عن الحظيرة، وها هي الجثث تبدو لي من موقعي وكأنّها كتلٌ جامدة صمّاء، أو كأنّها كيس حبوب يستند إلى الحائط.

- تعالَيْ، سأريكِ حظيرة الخنازير القديمة، إلا أنه لم يعد هناك خنازير بعد الآن، قال جاك.

أتبع جاك طوال الطريق، فيتوقّف فجأة، تبدو الحظيرة مهجورة لم يدخلها أحد منذ سنوات قليلة، رغم أن الخنازير غير موجودة إلا أن الحظيرة والسياج كما هما.

- إذن ما الذي حدث للخنازير؟

- آخر اثنين كانا طاعِنَيْن في السنّ، لم يكن بمقدورهما الحركة،

لذا كان علينا التخلص منها.

- ألم يشترِ والداك أي خنازير صغيرة جديدة بعد ذلك؟ يا للخنازير المسكينة! أهكذا تنتهي الأمور؟

- تُعتبر تربية تلك الخنازير أمرًا مُكلفًا للغاية أحيانا، وفي الوقت نفسه لم تكن قادرة على الحركة، أعتقد أن والديّ تركاها في أماكنها حتى ماتت.

- ولماذا قام والداك بقتل الخنازير؟

- تلك الأمور تحدث دائماً في المزرعة، ليست كل الأمور مُتعة هنا.

- أجل، ولكن هل كانت تلك الخنازير مريضة؟

- انسي هذا الأمر، أعتقد أن الحقيقة لن تعجبك.

- أخبرني فقط يا جاك، أريد أن أعرف.

- أحيانا، يكون الأمر شاقًّا هنا، لا يستطيع أبي الاعتناء بالخنازير كما يجب في مزرعة كهذه، لذا كان يكتفي بوضع طعامها من بعيد ولم يكن يدخل ليتحقق من سلامتها بنفسه. بعد مرور عدة أيام، دخل أبي ليلقي نظرة على الخنازير، إلا أنّهُ وجدها في حال سيئة.

- حاول أبي بذل قصارى جهده في تحريكها، ونقلها إلى مكانٍ آخر، كاد أبي أن يسقط إلى الخلف، وهو يحمل الخنزير الأول، إلا أنّه استطاع أن يحمله. عندما حمله أبي، وجد بطنه مُنتفخًا بالديدان،

كان الخنزير الثاني أسوأ حالاً من الخنزير الأول.

آلاف الديدان تلتهم الخِراف من الداخل، أعتقد أن ذلك بسبب جرح تعرض له أحد الخنازير، وتجمعت حوله الديدان، والحشرات ومن ثَمَّ انتشرت العدوى في بقية الخنازير.

يمكننا القول إنّ تلك الخنازير المسكينة قتلتها تلك الديدان وهي على قيد الحياة، ولكن كما قلت لكِ، الحياة ليست مُمتعة على الدوام.

- يا إلهي.

- كانت الخنازير طاعنة في السن، وقد دمَّر جهازها المناعي تماماً، هي خنازير على أية حال، تعيش في القذارة، اضطُرَّ أبي إلى قتلها، كان ذلك خيارَه الوحيدَ.

أخرجنا جاك من الحظيرة، ومشينا مرة أخرى. كنت أتتبع خطوات جاك وأنا حريصة كل الحرص على ألا أنزلق.

- تلك الكائنات الضعيفة المسكينة، قلتُ لجاك.

فهمتُ جيّداً ما يقصده جاك. لقد قام والده بقتل الخنازير حتى ينهي معاناتها، قتلها حتى يرحمها من الألم، قتلها حتى يُحرّرها من العذاب.

ما قاله جاك حول الخنازير، وكذلك مشهد الخِراف الميّتة المُتجمّدة التي رأيتها في تلك اللّيلة، كلّ تلك الأمور دفعتني إلى التّفكير، ماذا لو لم تنتهِ المعاناة بالموت؟ كيف يمكننا أن نعرف؟ ماذا لو لم تتحسّن الأحوال بالموت؟ ولم نبلغ الرّاحة التي نشتهيها؟ ماذا

لو لم يكن الموت مهربنا الأخير من آلام الحياة؟ ماذا لو استمرت تلك الديدان في أكل المزيد من لحوم الخنازير بعد الموت؟ مجرد إثارة تلك التساؤلات جعلتني أرتعد من الخوف.

- عليكِ رؤية الدّجاج، قالَ جاك.

اقتربنا من أقفاص الدّجاج، ودخلنا إلى الدّجاج المُتَجمهر ولكن يبدو أن الرائحة الكريهة لا تُفارق هذا المكان أيضاً. ليست الحظيرة وحدها، بل كل قطعة تنتمي إلى هذا المكان لها رائحة غريبة مُمَيّزة، كانت لحظة من أكثر اللّحظات وحشة على الإطلاق عندما تأملت الدجاج، ووجدت إحدى الدجاجات تأكل بيضها!

يبدو أن الدجاج لا يرحّب بوجودنا على الإطلاق، تماماً كما كان الحال في حظيرة الخِراف.

- إنّها تفعل ذلك أحيانا، إذا لم يتمّ جمع البيض فإنها تأكله، قال جاك.

- يا للقرف! هل لديكم جيران، أنا لا أرى جيرانًا هنا على الإطلاق؟

- هذا يعتمد على تعريفك لكلمة «جار».

أشعر بالامتنان لأننا خرجنا أخيراً من حظيرة الدجاج. لم أكن أحتمل رائحته أكثر من ذلك.

تجوّلنا حول المنزل، ليس من عادتي الشّعور بالجوع، لكنّني شعرت في تلك المرّة بأنّني أتضوّر جوعاً. نظرتُ إلى الأعلى حيث

النّافذة العلويّة. كانت هناك امرأة نحيفة، ذات شعر طويل مُستَرسَل تنظر إلينا، كان أنفي مُتجَمّدًا من البرْد.

– هل هذه أمّك؟ سألتُ جاك وأنا ألوّحُ لها ولكنّها لم تلوّح لي.

– من المؤكد أنها لا تراكِ، الظلام دامس للغاية في الداخل.

ظلّت المرأة تنظر إلينا من النافذة العلوية، بينما نحن نمشي في اتجاه المنزل.

يداي وقدماي مخدَّرة، أنفخ في يدي بمجرد دخول المنزل، ندخل إلى ردهة صغيرة في المنزل، أشمّ رائحة العشاء، تبدو رائحة لحم شهيّ، وها هي رائحة الحطب المُحتَرِق تظهر مرة أخرى وكذلك رائحة المنزل. تلك التي توجد في كل منزل وتميّزهُ عن غيره من المنازل إلّا أنّ رائحة كلّ منزل لا يُدركها من يقطنهُ.

– مرحباً، قالَ جاك لوالده الذي أجابه بأنهم سينزلون إلى الأسفل في غضون دقيقة.

بدا جاك متوتّراً، وشارد الذّهن حينها.

صعدنا عتبات السّلّم، ونحنُ نتّجهُ ناحية اليسار حيث غرفة الجلوس التي كان يغطيها الظلام. حاول جاك أن يضغط على أزرار الإضاءة.

– أين أهلك؟

– سينزلون الآن.

دخلنا إلى غرفة المعيشة، وهي أكبر حجماً، شكل المنزل من الداخل يختلف عن شكله من الخارج، يقترب إلى حدّ ما من توقّعاتي، أثاث يدوي، سجاد، المزيد من الطاولات والكراسي الخشبية، رغم أن ديكور المنزل ليس مثالياً، إلا أنّه يبدو مُتّسقاً إلى حدّ ما، كل قطعة من الأثاث أو الحُليّ تبدو عتيقة للغاية.

يبدو أنّ كلّ شيء قد تمّ شراؤه منذ عشرين سنة على الأقل، الأمر ساحر، يبدو كأنك سافرت بالزمن إلى عقود قديمة.

كان هناك موسيقى تعود إلى عقود ماضية، قادمة من مشغّل أسطوانات، لكني لا أعلم مصدرها بالضبط ومن أين تأتي؟

- غرف النّوم في الأعلى، ليس هناك شيءٌ آخر في الطابق الأعلى، كما أخبرتك سابقاً المنزل قديم للغاية، قال جاك.

قالَ وهو يشير إلى الدرج الموجود خارج غرفة المعيشة:

- بعد أن نتناول العشاء، سأصحبك لتشاهدي الطابق الأعلى.

كل شيء قديم هنا، قديم للغاية، إلّا أنّهُ رغم ذلك كلّ شيء هنا مُرَتّب للغاية. ليس هناك أية أتربة، لا توجد قذارة أو خيوط أو شعر حيوانات، المنزل في غاية النّظافة، ومُرَتّب بطريقة أنيقة وجليّة.

هناك عديد اللوحات الفنية المُعَلّقة على الجدران، لوحات فنية مُتعدّدة الأحجام، وهناك المزيد من الشموع كذلك.

كان هناك أيضاً تماثيلُ خزفيّةٌ صغيرةٌ، أراهن بأن أمه قامت بجمعها، تبدو تماثيلَ فائقةَ الجمال لأطفال يجمعون الزهور،

وبعضهم يحملون القشّ، وكأنهم يفعلون ذلك إلى الأبد.

يتسلّل إلى أذني صوت المدفأة في الزاوية البعيدة. أمضي إليها، وأقف أمامها مباشرة، أحاول تدفئة أطرافي من صقيع تلك الليلة الشّاقة.

خطرت ببالي فكرة فجأة، وبدلاً من أُقَلّبها في رأسي، تفوّهت بها للتوّ:

- هل سيأتي والداك لرؤيتنا؟ هل بالفعل قاما بدعوتنا إلى هنا؟

- أجل، هما يرغبان في أن نجتمع معاً، ونتحدث لبعض الوقت.

خارج غرفة المعيشة، أمام الدرج، كان هناك باب قديم للغاية مخدوش ومُغلَق.

- ما الذي يوجد في الداخل؟ قلتُ لجاك في فضول.

نظر إليّ جاك في غرابة، وكأن سؤالي غبيّ، ثم قال:

- بعض الغرف، وقبو.

- حسناً.

- وكذلك هناك حفرة في الأرض، وفتحة سيئة لسخّان المياه وغيرها من الأشياء. نحن لا نستخدم تلك المساحة من المنزل، لا يوجد شيء في الأسفل هناك.

- حفرة في الأرض؟

- انسيْ هذا الأمر، ما أرغب في قوله إنه ليس بمكانٍ لطيف على الإطلاق.

أسمع صوت أحدهم يُغلق الباب، وأنظر إلى جاك لعلّه هو الآخر سمع ما سمعته للتوّ، لكنّهُ كان غارقاً في أفكاره الخاصة وشارد الذّهن.

- ومن أين أتت تلك الخدوش على الباب؟

- من الكلب الذي كنا نربّيه سابقا.

شرعت أتأمل المدفأة واللوحات الفنية المُعلّقة على الجدران. لاحظت بعض الصور الفوتوغرافية هناك أيضاً، كل الصور كانت بالأبيض والأسود. لا أحد يبتسم في هذه الصور، كان الجميع مُتجَهِّم الوجه.

الصورة الموجودة في المُنتَصَف كانت لفتاة صغيرة واقفة في الرابعة عشرة، ترتدي فستاناً أبيضَ ولكنّ ملامحها غير واضحة.

- مَن تكون هذه الفتاة؟ سألت جاك وأنا أتحسّس إطار الصّورة بيدي.

لم يقف جاك من مكانه، فقط نظر من وراء الكتاب الذي التقطه من على الطاولة، وقال:

- إنها جدتي الكبرى، لقد ولدت عام 1885 أو في فترة زمنيّة كتلك.

تبدو جدّته نحيلة وشاحبة، تبدو خجولة للغاية أيضاً.

- لم تكن جدتي سعيدة في حياتها، كان لديها عديد المشاكل.

باغتتني لهجته الحادة التي يملؤها الاستياء الذي لم أعهده من جاك من قبلُ.

- ربما كانت حياتها صعبة، قلتُ لجاك.

- كانت لمشاكلها الأثر القاسي على الجميع، ولكن هذا لا يهمّ الآن، أنا لا أعرف حتى لماذا نُعَلّق صورتها هنا، قصّتها حزينة للغاية.

شعرت بالفضول، لأعرف المزيد حول تلك المرأة، لكنّني لم أسأل.

- مَن ذلك الطفل؟ قلتُ وأنا أشير إلى صورة طفل صغير يزحف على الأرض.

- ألا تعرفيه حقّا؟

- لا، وكيف بإمكاني أن أعرفه؟

- هذا الطفل هو أنا.

انحنى، وأنا أقترب أكثر من الصورة.

- ماذا؟ مستحيل أن يكون هذا أنت، الصورة قديمة للغاية.

- هذا فقط لأنها بالأبيض والأسود، لكنه أنا.

لا أصدق جاك، الصورة لطفل حافي القدمين، يبدو مُتسخاً بالطين والقذارة، ويركب درّاجة أطفال.

الطّفل ذو شعر طويل يحدق في الكاميرا. أدقق النظر قليلاً، فإذا بي أشعر بوخز في معدتي، لا تبدو صورة جاك. إنّها لا تشبهه على الإطلاق، تبدو الصّورة كأنها صورة فتاة صغيرة، عندما طلبت مزيداً من الدقة، بَدت الصورة كأنها صورتي.

- يقولون بأنه لم يكن يتحدث في معظم الأوقات.

- ما الذي تقصده بلم يكن يتحدث؟

- أقصد أنه كان من هذا النوع الذي تراه يعمل فحسب، لكنه لا يتحدث إلى أحد على الإطلاق، وهذا الأمر جعل الجميع يشعر بالارتباك، كنت ألتقيه مرات عدة في الردهة ولم يتحدث إليّ مطلقًا. فقط كان يتورّد خجلاً.

- حقًّا؟

- ما زلت أتذكر ندمي على تعيينه. لم يكن بسبب عدم كفاءته، بالعكس لقد كان يقوم بعمله على أكمل وجه، لكن ذلك الشعور الذي تسلّل إليّ حينها جعلني أرغب بشدة في طرده، ذلك الشّعور بأنه شخص غير طبيعيّ.

- كان شعورك في محلّه.

أجل، كان عليّ أن أتصرّف، أن أفعل شيئاً ما اعتماداً على حدسي.

- لم يكن جديراً بنا التّصرُّف هكذا، لم يكن جديراً بنا أن نجعل تصرفات غريبة وشاذّة صادرة من شخص واحد أن تُربكنا، لم نكن نحن السبب، نحن مَن نمثل الأشخاص الطبيعيين، هذا الشخص وحده هو مَن كان غير طبيعي.

- أنت مُحِقّ تماماً.

- إذن ما الذي علينا فعله الآن؟

- علينا أن ننسى هذا الأمر، أن نتجاوزه برمّته، وأن نبحث عن بديل ونمضي قُدماً.

نجلس الآن حول مائدة الطعام والروائح الشَّهية تُحاصرنا. لقد حرصت طيلة الساعات الماضية على تجويع نفسي حتى أستطيع أن أتناول الطعام بنَهم. وها أنا جائعة فعلا، مخاوفي الوحيدة الآن هي الصداع، تلك النكهة الكيميائية التي تملأ فمي عندما أتناول أطعمة معيّنة، وتسوء للغاية عندما أتناول خضرواتٍ أو فواكهَ. عندما أشعر بذلك المذاق الكيميائي الكريه أتوقف فوراً عن تناول أي طعام مهما كان لذيذاً. لذا أتمنى ألا تأتيني الآن، لا أعرف تحديداً ما السبب وراء هذا المذاق، إلّا أنني بدأت أشعر به في الأيام الأخيرة من الفترة الماضية.

أنا مندهشة للغاية، تُرى أين والدا جاك؟ لماذا لم يأتيا إلينا رغم أن المائدة مُعَدَّة وكل شيء جاهز. أسمع صوت ضوضاء في الغرفة المجاورة، صوتًا قادمًا من المطبخ.

أمدّ يدي وألتقط قطعة خبز وأقسمها إلى نصفين، وأضع عليها بعض الزّبدة ثمَّ أتوقف فجأة عن مضغ الطّعام لأنّني الوحيدة التي تأكل هنا. جاك يجلس فقط دون أن يأكل، لكنّني أتصوّر جوعاً.

كنت على وشك أن أسأل جاك أين والداه، إلاّ أنّني قبل أن أفتح فمي، فُوجئتُ بوالديه يفتحان الباب ويتقدّمان نحونا واحداً تلوَ الآخر.

أقف، لأقوم بتحيّتهما.

قالَ والدهُ وهو يلوّحُ بيده: اجلسي من فضلك، اجلسي، سعدت بلقائك.

- شكراً لدعوتي، رائحة الطّعام شهيّة للغاية.

- أرجو أن تكوني جائعةً، نحن سعداءُ للغاية بوجودك هنا، قالت أمّ جاك ثمّ همّت جالسة.

حدث الأمر بسرعة غريبة، دون مقدّمات ودون مصافحات ها نحن جميعاً نجلس حول الطّاولة، أشعر بالفضول الشّديد لمعرفة المزيد حول والديْ جاك.

لا يشبه جاك كلا والديه على الإطلاق من الناحية الشّكلية، يبدو والده خجولًا بعض الشيء، ومُتَحفّظًا ويحبّ أن يضع حدوداً فاصلة بينه وبين الآخرين، أمّا أمّه فكانت تبتسم طيلة الوقت منذ اللحظة الأول التي رأيتها فيها. تبدو كذلك مُتكلّفة بعض الشيء،

عكس ما كنت أتوقّع. تضع المزيد من الماكياج. هيئتها مُثيرة للقلق نوعاً ما. وشعرها مصبوغ باللون الأسود الغامق، بالتأكيد لا أستطيع أن أتفوّه بحرف لجاك في ما يخصّ مظهر أمه.

كما أنها تبدو متوتّرة، ترتعش كثيراً، ربما هي رقيقة للغاية، كما لو كانت زجاجًا على وشك أن ينكسر في أي وقت.

كانت أم جاك ترتدي فستاناً قديماً عفا عليه الزمن، بأكمام قصيرة زرقاء، ودانتيل أبيض مُزَخرف حول الرقبة، فستانا صيفيا أكثر منه شتويا، تماماً كأنها في طريقها لحضور حفلة استقبال رسمي، يبدو مُتكلفاً كثيراً بالنسبة إلى عشاء بسيط، جعلتني أشعر بأنني أرتدي لباساً غير مناسب، وكانت حافية القدمين كذلك.

في تلك اللحظة التي وضعت فيها المنديل على حجري، استرقت النظر أسفل طاولة الطعام، فإذا بي ألحظ إصبع قدمها اليُمنى منزوع الظفر، أما باقي الأصابع فقد كانت مدهونة بطلاء أحمر.

أما والد جاك، فكان يرتدي حذاءً وسروالًا أزرقَ وقميصًا وكان هناك ضمّادة على جبينه، تحديداً أعلى حاجبه الأيسر.

- لديّ مشاكل في السَّمع، قالت أمّ جاك ونحن نتناول طعامنا معاً، حينها نظرت إليها وأنا أبتسم. يمكنني القول إنّ والدته تُراقبني طيلة الوقت وتُحدّق في وجهي بلا هوادة وهي تبتسمُ ابتسامَتها العريضة العجيبة.

أسمع صوت ساعة الحائط بوضوح، وكأننا نغرق في بحرٍ من

الصّمت.

- لديكِ أكثر من مشكلة، ليس الأمر مُتعلّقاً بالسَّمعِ فقط، قال والد جاك.

- طنين فقط، هذا كلّ ما في الأمر، قالت والدة جاك وهي تضغط على يد زوجها بلطف وتبتسم لي.

- عذراً، أي طنين؟ سألتها في فضول.

- يسكن رأسي طنين متواصل، لا أعرف مصدره، في البداية اعتقدنا أنه نتيجة لشمع الأذن، ولكن اتضح بعد ذلك أن هذا ليس صحيحاً.

- الأمر ليس مُمتعاً على الإطلاق، قالَ زوجها.

- أجل، ليس مُمتعاً على الإطلاق، قالت والدة جاك.

- يا إلهي! هذا فظيع، لقد سمعت عن هذا الأمر من قبلُ، قلتها في تأثّر، وأنا أنظر إلى جاك، ولكن دون جدوى، فهو لا ينظر إليّ على الإطلاق، فقط يستمرّ في غرف الطعام إلى طبقه، وتناوله بنَهمه المُعتاد.

- وبذلك أصبح سمعي سيئاً للغاية، أعتقد أنّ كل الأمور ترتبط ببعضها البعض.

- هي تطلب مني أن أُكَرّرَ ما قلته طيلة الوقت. قالَ زوجها.

- أسمع أصواتاً غريبة. أصواتاً تبدو كأنها همس.

تبتسم لي والدة جاك بابتسامة عريضة متكلّفة للمرة الثانية، وها أنا في أشدّ الحاجة إلى تدخل جاك هذه المرة، وكأني أصرخ: أرجوك ساعدني! لكنه لا يحرك ساكناً، ويستمرّ في تناول طعامه.

عندما نظرت إلى جاك للمرة الثانية، رنَّ هاتفي فجأة فقفزت والدة جاك من مقعدها، لقد وضعت هاتفي في حقيبتي، ووضعتها أسفل الكرسي، شعرت بالحرج الشّديد.

حينها نظر جاك إليّ، قلت له:

- أنا آسفة للغاية، اعتقدت أن بطارية الهاتف أوشكت على النفاد إلا أنه رنّ مرة أخرى.

- هل تتّصل بكِ صديقتك مرة أخرى؟ لقد كانت تتّصل طيلة الليل.

- ربما ترغب في إخبارك شيئًا ما، لا بأس، ردّي عليها، قالت والدة جاك.

- لا، لا الأمر ليس مهمًا على الإطلاق.

- ربما يكون مهمًا، قالت والدة جاك.

استمرّ رنين الهاتف لفترة أطول، لم يتحدّث أي منّا، وساد الصّمت. بعد دقائقَ قليلةٍ توقّف الرنين.

- على أية حال، تلك الأعراض الصّوتية تبدو أسوأ بكثير مما

تبدو عليه. هي لا تشبه ما يحدث في الأفلام، قالَ والد جاك وهو يضغط على يد زوجته.

في تلك اللحظة، ألمح وميض رسالة صوتيّة جديدة على شاشة هاتفي، ها هو يرسل إليّ رسالة أخرى، لن أتمكن من أن أستمع لها الآن، ولكني سأحاول الاستماع لها لاحقاً، من المؤكد أنني لن أتجاهلها إلى الأبد.

- الأصوات التي أستمع لها ليست أصواتاً مثل صوتي وصوتك، ولكنها تبدو كأحد يهمس في أذني، يهمس بكلام غير واضح وغير مفهوم، قالت والدة جاك.

- الأمر يبدو قاسياً على زوجتي للغاية، تحديداً في وقت الليل.

- أجل الليل هو الأسوأ، لا يمكنني النوم على الإطلاق.

- وإذا استطاعت النوم، لا يمكن أن ينام أحد.

لا أعرف ما الذي عليّ قوله الآن، كأني أتعلق بقَشَّة، قلت لها:

- يبدو الأمر قاسياً عليكِ للغاية، كلّما بحثنا عن أهمّية النوم، وجدنا أنه كل شيء وأنّ الأرق يقضي على الإنسان.

الهاتف يواصل الرّنين مرة أخرى، وهذه المرة يبدو صوته أعلى وأكثر إزعاجاً.

- حقّاً؟ ألن تردّي هذه المرة أيضاً؟ قالَ جاك.

لم ينطق والداه بأي حرف، فقط تبادلا النظرات.

لا أستطيع الردّ على الهاتف، لا، لا يمكنني فعل ذلك.

- أنا آسفة للغاية، أعرف أن هذا مُزعِج للجميع.

حدّق جاك في وجهي.

- تلك الأعراض قد تسبّب المزيد من المتاعب أكثر ممّا تستحقّه أحيانا، قال والد جاك.

- شَلل النّوم، حالة مرضيّة خطيرة، قالت والدة جاك.

- هل سمعتِ عنها من قبلُ؟ سألني والد جاك.

- أعتقد ذلك.

- لا أستطيع الحركة، فقط أنام مستيقظة، دون أن أفقد الوعي.

لَوّح والد جاك بالشوكة، وهو يتحدث، قائلاً:

أحيانا كثيرة، أستيقظ من نومي وأبحث عنها وهي مُستَلقية على ظهرها بجانبي. لا تتحدث وغير قادرة على الحركة، عيناها تتسعان في ذعر، طالما جعلني ذلك المشهد أرتجف من الخوف، طيلة تلك الفترة الطويلة، لم أعتدْ على هذا، أشعر دائما بالخوف الشّديد عندما أستيقظ وأجدها هكذا.

قالَت والد جاك وواصل أكل طعامه بنَهم واضح.

- أشعر دائماً أنّ هناكَ همّا ثقيلا يجثمُ على صدري، ويجعلني أشعر بصعوبة في التنفس.

هذه المرة جاءت رسالة صوتية أخرى، أسقط جاك شوكته، التفتنا إليه جميعا.

- آسف، قالَ جاك، وهو ينظر إلى طبقه. لأوّل مرة ألحظ جاك يركز فقط على طبقه في أثناء تناول الطعام، لا أعرف لماذا يتصرف هكذا هنا، إن كان قد أنهى طعامه.

هل أنا السبب في ذلك؟ في جعله يجلس منزعجاً بعض الشيء؟ هل السبب في ذلك تلك الاتصالات الواردة إلى هاتفي؟

لاحظت أنه بدا بتلك الحالة منذ لحظة وصولنا إلى منزل أهله، بدا مزاجُه سيئاً للغاية، وكأنّني فعلت شيئاً ضايقه. أشعر حقّا كأنّني أجلس هنا وحدي تماماً.

- إذن كيف كانت الرحلة؟ اسأل والد جاك، ها هو يسمح لجاك بأن يتحدّث أخيراً.

- كانت رحلتنا جيدة رغم أن الطريق كان مُزدحماً في البداية، إلا أنه أصبح أفضل بعد ذلكَ، قالَ جاك.

- الطرق الريفية تفتقر إلى المزيد.

يتشابه جاك في أمور عديدة مع والديه، بغضّ النظر عن الناحية الشكلية، إلاّ أنه يتشابه معهم في الحركات الصغيرة البسيطة وطريقة التحدث وفرك اليدين في أثناء التحدث، يشترك مع والديه في كل شيء، ما عدا الشكل.

- لا يحب الناس قيادة السيارة في أوقات البرد وهطول الثلوج،

وأنا لا ألومهم على ذلك، قالت والدة جاك.

- لا يوجد شيء في الجوار في طرقنا الريفية تلك، لا يوجد شيء يمكنك أن تشاهديه، الطرق خالية تماماً، خصوصًا في الليل.

- لقد اعتاد على الزحام وحركة السير المضطربة لكن هنا في الطرق الريفية، سعدت للغاية بالحصول على تلك الفرصة الرائعة للاستمتاع بجوّ الريف، أنا ممتنّة لذلك.

- أنتِ من الضواحي، أليس كذلك؟

- وُلدتُ وتربيت هناك على بعد ساعة ونصف من المدينة.

- أجل، كنّا هناك في تلك المنطقة، بالقرب من نافورة المياه، أليس كذلك؟

- لا أعتقد أننا قمنا بزيارة منطقتها تلك من قبلُ، قالت والدة جاك.

أنا لا أعرف بماذا أردّ عليها؟ ليس هذا تناقضاً؟

تثاءبت والدة جاك، وكأنها مُتعَبة من كثرة ذكريات أسفارها الماضية أو ندرتها.

- أنا مندهش أنكِ لا تتذكرين الوقت الذي قضيناه هناك معاً، قال والد جاك.

- أنا أتذكر عدة أشياء، منها على سبيل المثال قدوم جاك آخر مرّة إلى هنا كانت مع حبيبته السّابقة.

غمزت والدة جاك لي عند تفوّهها بتلك الكلمات، صِدقاً لا أعرف إن كانت غمزت لي مُتَعمّدة أم أنها مجرّد حركة تلقائية بسبب شيء ما يتعلق بأعصاب العين.

- ألا تتذكر هذا اليوم يا جاك، الذي تناولنا فيه كمًّا كبيرًا من الطعام؟

- لا، لا أتذكّرُ ذلكَ، لم يكن يوماً مميّزاً بالنسبة إليّ حتى أتذكره.

أنهى جاك وجبته، طبقه نظيف تماماً الآن، أما أنا فلم أنهِ حتى نصف طبقي، رغم أني لم أعد جائعة بعدُ. وضعت الجزَر والطماطم على شريحة اللحم النيّئة من الداخل والمقرمشة من الخارج، وأكلتها على الفور.

- نحن سعداء للغاية باستضافتك اليوم، لم يكن جاك معتاداً على إحضار حبيباته إلى هنا، قالت أم جاك.

- نحن سعداء لوجودك فعلا، نحن بمفردنا طيلة الوقت، و..... قالَ والد جاك.

- لديّ فكرة! فكرة مُمتعة، قالت والدة جاك.

التفتنا جميعنا إليها.

- لقد اعتدنا على لعب بعض الألعاب في وقت الفراغ، كحيلة لتمرير الوقت، وهناك لعبة هي المفضلة إليّ، وستعجبك، لماذا لا نلعبها يا جاك؟ قالت والدة جاك.

- لنلعبها! يا لها من فكرة رائعة! قال والد جاك.

نظر إليّ جاك، ثم نزل إلى الأسفل دون أن يتفوّه بكلمة.

- هل تعنين أن نقوم بتقمّص شخصية جاك، وتقليده؟ سألتها.

- أجل.

وضع والد جاك سكينه على طاولة الطعام، وقال: إنها فكرة رائعة.

- آسفة. أنا لست بارعة في هذا النوع من الألعاب، قلتُ لهم.

- قومي بتقليد صوته حتى نضحك، إنها مجرد لعبة، قالت والدته.

أنظر إلى جاك، ولكنه لا ينظر إلى عينيّ مباشرة.

- حسناً، قلت وأنا لا أشعر بالراحة بتقليد جاك أمام والديه، إلا أني وافقت فقط حتى أرضي والديه.

الجميع في انتظاري، يحدقون في وجهي.

أتأهّب لتقليد جاك، وها أنا أنطلق قائلةً:

- مرحباً، أنا جاك، ما أودّ قوله هو أن للكيمياء الحيوية مزايا عديدة، تماماً مثل الأدب والفلسفة.

ابتسم والد جاك، وابتسمت أمه كذلك ابتسامة عريضة، شعرت بالإحراج الشديد، لم أكن أريد أن ألعب هذه اللعبة.

- ليس سيئاً، قال والد جاك.

- كنت أعرف أنكِ تعرفين كيف تقلدين جاك، لأنكِ تعرفينه من الداخل والخارج.

نظر إلينا جاك، ثم قال: سأذهب.

كان هذا أول شيء يقوله جاك منذ فترة طويلة، يبدو أن جاك لا يحبّ الألعاب.

- هذا هو المطلوب، قالت والدة جاك، وهي تبتسمُ وتصفّقُ.

استمرّ جاك في التحدث بصوتٍ يبدو واضحاً أنه صوتي وأنا أُقلده. لم يكن جاك يرغب في السخرية مني، لكنّهُ يرغب في تقليدي بحركات الوجه والإيماءات. كان دقيقًا مُذهِلًا لكنّهُ بدا غير مسرور.

لم يتعامل جاك مع تلك اللعبة على أنها مُزحَة للتقليد أو انتحال شخصية ما، ولكنه كان يأخذ الأمر على محمل الجدّ، كان يقلدني أمام والديه تماماً كما لو كنت أنا في منتهى الجدية.

انفجر والده ضاحكًا، وكذلك والدته ولكن جاك لم يضحك.

مرت دقائق من الصمت، ثم رنّ الهاتفُ فجأة، لم يكن هاتفي المحمول هذه المرّة، بل كان الهاتف الأرضي الخاص بالمزرعة.

- عليّ الرد على الاتصال، قالت والدة جاك، ثمّ وقفت وتوجّهت بسرعة غريبة إلى الخارج.

في تلك الأثناء، عاد والد جاك لتناول طعامه مرة أخرى، لم أعد أشعر بالجوع، طلب مني جاك أن أقوم بتمرير طبق السلطة إليه ففعلتُ. لكنهّ لم يتوجّه إليّ بالشكر.

- عادت أمه إلى الغرفة مرة أخرى.

- مَن المُتَصِل؟ قال جاك.

- رقم خاطئ.

عادت والدة جاك لتناول طعامها هي الأخرى.

- عليكِ أن تتفقّدي هاتفك، لا بأس بذلك، قالت أمّهُ وحينها شعرت بوخز وهي تُحدّق فيّ.

أحضرت والدة جاك كعكة مصنوعة من الشكولاتة والكريمة.

لا يمكنني تناول تلك الحلوى، ليس فقط لأني لست جائعة على الإطلاق بل لأنّي أملكَ حساسيّة ضدّ اللاكتوز، لقد أخبرت جاك بهذا سابقاً، لكن من المؤكد أنه نسي إخبار والديه بهذا الأمر.

في اللحظة التي كان فيها جاك ووالداه في المطبخ، تفقدت هاتفي، فوجدت بطاريته فارغة، وهذا الأمر جيد للغاية، سوف أحاول إيجاد حلّ صباحًا.

عند عودة والدة جاك من المطبخ، كانت ترتدي فستاناً جديداً، يشبه فستانَها الأوّل من حيث طريقة الحياكة، ولكن يختلف في اللّون فقط، لا أعرف هل من عادتها تغييرُ ملابسها طيلةَ اليوم

الواحد؟ أم أنّها سكبت شيئًا ما على فستانها الأوّل، جعلها تقوم بتغييره؟ كانت تضع كذلك ضمّادة على إصبعها منزوع الظّفر.

- هل ترغبين في تناول شيء آخر؟ هل ما زلتِ لا ترغبين في أكل تلك الكعكة؟ سألني والد جاك.

- لا، شكراً، كان العشاء مذهلاً، وأنا أشعر بالشبع.

- أمر سيء أنكِ لا تحبين «الكريمة»، أعرف أنها قد تسبب السّمنة، ولكنّ مذاقها رائع! قالت أم جاك.

لم يأكل جاك من تلك الكعكة أيضاً، كان جالساً على كرسيّه، يلعب بإحدى خصلات شعره في شرود.

أشعر بهزّة مفاجئة، وكأنّ أحدهم قرصني للتوّ، وإذا بي أجدُ نفسي عاكفةَ على قضْم أظفاري، وها هي سبّابتي داخلَ فمي!

أنظر إلى يدي فجأة، وأجد نصفَ أظفاري غير موجودة! متى قضمت ذلك الظّفر؟ هل فعلت ذلك طوال فترة العشاء؟ ألهذا السبب كان جاك ينظر إليّ بغرابة؟ أقوم بإخفاء يدي وأضعها إلى جانبي.

- هل يمكنك أن تُلقي السّماد في الخارج من فضلك يا جاك؟ ظهر والدك يؤلمه منذ فترة ولم يعد هناك مكان في صندوق القمامة، قالت والدة جاك.

- بالتأكيد، ردّ جاك.

ربما أنا مَن شعر بذلك فقط، لكنّني شعرت بأن الفترة التي تناولنا فيها العشاء، كانت غريبة بعض الشيء، لم أجد أي شيء هنا كما توقّعته، بدءاً من رحلتنا معاً على الطّريق ومروراً بالمنزل ووالديه. لم أكن أتوقّع أن أجد كلّ شيء قديم ومتهالك حتّى أن والديْه رغم أنهما تحدّثا لوقتٍ طويل، إلاّ أن معظم حديثهم عن أنفسهم فقط.

كنت أظنّ أن والديْ جاك مُتحدّثين بارعين، كما هو الحال مع جاك، لأنه واحد من أفضل المُتحدّثين الذي التقيتهم في حياتي كلّها.

كنت أعتقد بأننا سنتحدّث حول الفن والفلسفة والسياسة، كنت أظنّ أن هذا المنزل سيكون أكبر حجماً وبهيئة أفضل، ولكن هذا لم يحدث.

ما زلت أتذكر ما قاله لي جاك عن شروط الحوار الفكري النّاجح:

– يجب أن يتحلّى الحوار بالبساطة والتلقائية. يجب أن يبتعد الحوار عن المُبالغة أو الحذلقة.

– المعذرة أنا فقط أودّ الذّهاب إلى «الحمّام»، هل هو في اتجاه الباب الرئيسي؟ سألت.

– أجل! في نهاية الرواق. قال والد جاك.

استغرق الأمر ثانيةً حتى أنجح في معرفة مكان مفتاح الإضاءة

الخاص «بالحمام» وسطَ هذا الظلام الدامس، عندما ضغطت عليه، لم يكن الضّوء المُنبَعث منه كتلك الأضواء الصفراء الخافتة التي اعتدت عليها في «الحمامات»، ولكنّهُ كان ضوءًا أبيَض وقويًّا للغاية، تماماً كهذا الضّوء المستخدم في غرفة العمليّات الجراحيّة، شعرت للحظة بالحَوَل ثم دقّقت النظر من حولي.

أوّل شيء قمت به بعد إغلاق باب «الحمام»، هو انتزاع ذلك الظّفر الذي كنت ألوكه بين أسناني وبصقه إلى الخارج.

عندها تأملت يدي مرة أخرى، ووجدت إصبعاً آخر، تمّ قضم نصفه! ووجدت الدم يتدفق بين الظّفر واللّحم.

لا أعرف متى حدث ذلك؟ صِدقاً لا أعرف.

لم يكن هناك مرايا في هذا «الحمام»، وهذا الأمر جيد، لأني لا أرغب في رؤية نفسي الآن، ليس اليوم، أعلم أنني أبدو مُرهقة للغاية، لم أنم لأيام قليلة، وكذلك رحلتنا كانت شاقّة. أعلم أن وجهي يبدو مُلطّخاً وهناك أكياس دُهنيّة أسفل عيني. أبدو عصبية ومتوتّرة للغاية. لا أنا أريد رؤية نفسي في المرآة اليوم، ولا أرغب أيضاً في العودة إلى هناك، ليس الآن. أشعر بصداعٍ مُميت.

بعد العشاء، قفز والدا جاك لتنظيف الطّاولة ودخلا إلى المطبخ وتركاني وجاك وحدنا، لم نتحدث كثيراً، كان في استطاعتي سماع أصوات والديه في المطبخ، في الواقع لم أستطع سماع الكلمات، ولكنّ نبرة أصواتهما كانت واضحة، يبدو أنه يدور بينهما شجار

عنيف، أنا مسرورة لأن هذا لم يحدث أمامي وجاك.

- ماذا يحدث هناك؟ سألت جاك هامسةً.

- أين؟

أنهيتُ «حمامي»، ثم توقّفت وأنا أحاول ترتيب كلّ شيء قبل خروجي. في الواقع ما زلت لا أرغب في العودة إلى هناك، لم يكن هناك ضوضاء في الخارج وكأنه لا أحد في المنزل. لم يكن هناك أي صوت. وكأني هنا بمفردي، شعرت بأن هناك شخصا ما يقف خلف الباب. تأهبت لفتح الباب بشكل مفاجئ، إلا أنني لم أجد أحداً بل وجدت حذائي فقط، أذكر أنني كنت أضع حذائي في مكانٍ آخر، ليس هنا، إلا أني وجدته هنا فجأة، ربما أنا مَن وضعته هنا ولا أتذكر، قمت بغسل يديّ قبل أن أخرج، وعندما غسلتها، وجدت أنفي ينزف فجأة! لماذا يحدث هذا الآن؟ لم ينزف أنفي منذ سنوات!

غادرت «الحمّام»، ونزلت على السّلالم الخشبية إلى الأسفل، وعندها سمعت صوت جاك يتحدث مع والديه في المطبخ، لم أسرع في النزول، أبطأت بعض الشيء لأني أرغب في أن أعطيه بعض المساحة مع والديه للتحدث.

لا يمكنني رؤية أي شيء من موقعي، الظلام دامس للغاية هنا على السلالم، لذا نزلت إلى الأسفل. لفت نظري وجود صوت قادم من القبْو، كان هناك سلسلة بيضاء على الباب، شعرت بالفضول

لأعرف ماذا يوجد في الداخل، لذا قمت بسحب السّلسلة، وفتحت الباب، الذي أصدر صوت صرير مُزعجٍ ألم يقل لي جاك إنّ هذا القبو مهجورٌ ولا يستخدمه والداه على الإطلاق؟ تُرى من أين جاء ذلك الصّوت إذن؟

هل هو صوت سخّان المياه؟

أنظر إلى أسفل القبْو، تبدو السّلالم غير متساوية، ومحفوفة بالمخاطر ولا يوجد «درابزين». وهناك باب سرّي إلى يميني مفتوح بمشبك معدنيّ، كان هناك خدوش في كلّ مكان، كتلك الخدوش على باب غرفة الجلوس في الطابق الأعلى، أُمَرّر يدي عليها، هي لا تبدو خدوشاً عميقة، لكنها تبدو مُخيفة.

أهبط إلى الأسفل، يبدو الأمر كما لو أنني أقفز إلى مركب شراعيّ، أحاول أن أتحسس الحائط حتى لا أسقط.

في الأسفل، أخطو باتّجاه لوح من الخرسانة، أعلى طريق من الحصى، لا يوجد غرف عدة هنا في الأسفل، السّقف منخفض للغاية، أمامي هناك عدة رفوف تحمل فوقها علبًا كرتونيّة مُبَلّلة، مُتسخة وقديمة. المزيد من القذارة والأتربة، وصفوف من الصناديق الكرتونية، المزيد من الأشياء مُحتَجزَة ومدفونة هنا في الأسفل.

ما قاله لي جاك حول أنهم لا يستخدمون ذلك القبو، وأنه لا يوجد أي شيء في الأسفل ليس حقيقياً. ليس حقيقياً على الإطلاق.

ألتفت حولي، أجد المدفأة وسخان المياه إلى جانبي، وكذلك قطعة من المعدات لا تعمل، ليس لديّ أدنى فكرة ما هي، أو ماذا كانت؟

الغرفة هنا أصغر بكثير من أن تكون حفرة في الأرض، تبدو غرفة خانقة وكئيبة وقذرة. المكان هنا كافٍ لإخافة أي طفل. أنا لا أدرى لماذا نزلت إلى هنا إلى الأسفل؟ ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم؟

وأنا على وشك الخروج من هنا، والصعود إلى الطابق العلوي، رأيت مروحة متأرجحة على أحد الرفوف، ربما تلك المروحة هي ذلك الصّوت الذي سمعتُه في الأعلى، ولكن لماذا توجد مروحة تعمل هنا في فصل الشّتاء؟ الجوّ بارد بما فيه الكفاية بالفعل، عليّ الصعود إلى أعلى فوراً.

لمحت قبل خروجي لوحة فنيّة على حامل، ألهذا السبب توجد المروحة هنا؟ حتى تقوم بتجفيف الرسمة؟ ولكن تُرى مَن هذا الرسام، أعتقد أنها والدة جاك، ولكنها أطول مني بكثير، وأنا لا أكاد أقف في تلك الغرفة، وأنا أنحني بسبب انخفاض السقف، فكيف تقف هي هنا؟ كذلك لا توجد أية أدوات رسم هنا على الإطلاق ولماذا قد يرسم أحدهم في قبو كهذا؟

اقتربت أكثرَ من تلك اللّوحة وحدّقت فيها. ضربات الفُرشاة قويّة، وهناك المزيد من التفاصيل، تبدو اللّوحة عن مكان ما، ربما هذا هو القبو، الظّلام دامس، لا يمكنني التحقّق من ذلك. ولكن

يبدو كأنّ ذلك القبو، وتلك الرّفوف والألواح الخرسانيّة وكلّ شيء هنا فيما عدا المروحة وهناك امرأة ربّما أو رجل يجلس على كرسيّ، وينحني إلى الأسفل، لا أعرف إن كان رجلاً أو امرأة، هو شخص له شَعر طويل، وأظفار طويلة للغاية، وكأنها مخالب وإلى جانبه شخص أصغر حجماً، هل هو طفل؟

عند تحديقي في تلك اللوحة، تذكرت ما قاله لي جاك في أثناء رحلتنا بالسيارة على الطريق، ولكني حينها لم أكن معه بالكامل، وكأني كنت أستمع له بنصف أذن، حينها سألني:

لماذا تستخدمين النّماذج في الفلسفة؟

- كيف تمتزج معظم المفاهيم والحقائق والاستنتاج العقلاني والتجريدي؟

ربما هذا بسبب العلاقة التكاملية بينهما جميعاً، قال جاك، لكني لم أكن أنتبه إليه جيداً. كنت أراقب الأشجار من النافذة.

- تلك العلاقة التكاملية بين الأشياء هي التي تحفّز عقولنا على التفكير السليم والعمل، وتحفزنا على التفاعل، انقسامنا بين العقل والمنطق وأشياء أخرى، تلك الأشياء الأخرى التي قد تقترب من الروح أو المشاعر، ولكن حتى أعظم العقول في العالم، لا تستطيع التفكير منطقياً حتى النهاية، نحن نعتمد على الرموز من أجل فهم الأشياء من حولنا.

حدقت في وجه جاك، دون أن أتفوّه بكلمة.

- وأنا لا أتحدث هنا عن الإغريق، وحضارتهم، بل أتحدث عن ذلك القاسم المشترك الجميل بين الشرق والغرب، الأمر متعلق بالجميع.

- ما الذي تقصده من الرموز؟

- لا يمكننا فهم مدلول أي شيء من خلال خبراتنا الحياتية. نحن نقبل الأشياء ونرفضها ونستنتجها من خلال استخدامنا الرمزي لها. هذا الأمر جزء رئيسي من فهمنا للحياة وإدراكنا لكل شيء حولنا. فهي تساهم في كيفية اتخاذنا القرارات وقدرتنا على اتخاذها. الأمر يتعلق بأهمية وجودنا وقيمتنا في الحياة، أنا أخبرك بالأمور من منظوري كعالم، الأمر ممتع حقاً.

أنظر إلى اللوحة الفنية، أتأملها، أرى وجه الشخص المرسوم، وجهه المتألم، ومن حولي القبو المظلم والمروحة التي تتأرجح إلى الأمام والخلف.

كانت هناك حقيبة قديمة، موضوعة بالقرب من اللوحة. الحقيبة تملؤها الأوراق القديمة، أوراق ورسومات. كل رسمة بها شخص ما مختلف يقف عند المروحة، هناك من يقف عارياً، وهناك مَن لديه قرون، وآخرون، القاسم المشترك الوحيد بينهم هو تلك الأظفار الطويلة، الأظفار التي تبدو كمخالب مفترسة.

كان هذا الطفل الذي رأيته في اللوحة الأولى، موجوداً أيضاً في باقي اللوحات. كان ينظر في كل لوحة إلى تلك المرأة ذات الأظفار

الطويلة. إلا أنه هناك لوحة واحدة لم يكن الطفل ينظر إليها بل كان جزءاً منها. في تلك اللّوحة كان لتلك المرأة رأسان، هناك شيء واحد ثابت بخصوص كل لوحة. ألا وهو تعبير الشَّلل غير المُصطَنَع على وجه كلّ شخص منهم.

فجأة سمعتُ صوت خطوات أقدام في الطابق العلوي، هل هي والدة جاك؟

بعدها بدقائق أدركت أنها أصوات والد جاك، ووالدته يتشاحنان في المطبخ، يبدو أنهما منزعجان للغاية، لا أعرف ما الأمر.

أحاول أن أقف على عَتبة أعلى، وأحاول أن أستمع لما يتحدّثان بشأنه.



- لا يمكنه الاستمرار في ما يفعله.

- كلّ هذا يجب أن يتغيّر.

- بعد أن أمضى كلّ هذا الوقت هناك، يقدم استقالته فجأة؟ يُلقي بكلّ شيء على قارعة الطريق؟ بالطّبع أنا قلق بشأنه.

- ربما هو في حاجة إلى شيء آخر، يقضي جاك معظم وقته وحده تماماً.

هل يتحدّثان عن جاك، أقترب أكثر من الحائط، وأنا أقف على أطراف أصابعي.

- لقد كنتِ تقولين له دوماً أن يفعل ما يحلو له.

- وماذا عساي أن أقول؟ وأنا أجده يزداد خجلاً وانطوائية بهذا الشكل يوما بعد يوم؟

- إنّه في حاجة إلى أن تتركه وشأنه ليمضي قُدُمًا في حياته.

لقد ترك وظيفته في المعمل، لقد اتّخذ القرار الخطأ، كيف بمقدوره فعل ذلك.

كان هناك شيء ما لم أستطع سماعه.

- أجل، أجل، أعرف أنه ذكي للغاية. لكن لم يكن يفترض به أبداً أن يسلك هذا الطريق.

ماذا؟ هل ترك جاك وظيفته في المعمل؟ ما الذي يتحدثان بشأنه؟

لم يخبرني جاك بأنه ترك المعمل!

الزجاجة التي أقف عليها، سقطت على الأرض، وها أنا أصطدم بالحائط، وفجأة توقفت الأصوات وأنا أرتجف من الخوف.

للحظة، شعرت بأن هناك شخصاً ما يقف خلفي، التفتُّ، ولكني لم أجد أحداً، كان الضوء خافتاً للغاية، والأصوات قد توقفت. أنا وحدي الآن تماما.

يلفّني شعور كريه من رهاب الأماكن المغلقة وأنا أفكر في ماذا لو قام أحدهم بإغلاق الباب السري؟ هل سأظلُّ في ذلكَ الوقت محبوسة ومُحاصَرة هنا في هذا الظلام؟

- هل تعرف ما هو السبب الرئيسي للوفاة؟

- نَزَف حتى الموت! هناك عدة طعنات في جسده.

- يا إلهي! هذا مُريع للغاية.

- نَزَف ساعاتٍ طويلةً كما نعتقد، وفقد المزيد من الدماء.

- من المؤكد أن رؤية مشهد كهذا أمر مُرعِب للغاية.

- أجل، يمكنني تخيّل ذلك، مشهد لا يمكن نسيانه إلى الأبد.

عند عودتي من القبْو، وجدتُ غرفة المعيشة خالية تماماً، وجميع الأطباق أيضاً، ما عدا طبقي.

أمدّ رقبتي قليلاً. أحاول أن ألقي نظرة على المطبخ، فإذا بي أجد الأطباق المُتّسخة مُكَوّمة في الحوض، لم يتمّ غسلُها بَعدُ.

- جاك، قلتُ وأنا أتساءل أين هو؟ وأين والداه؟ ربما ذهب جاك إلى الخارج لإلقاء المُهملات.

قال لي جاك بأنه سوف يصحبني بعد العشاء إلى الطابق العلويّ لمشاهدته، إذن ماذا الآن؟ هل بإمكاني الصّعود إلى أعلى. أمشي باتجاه السّلّم، وإذا بي أجد نافذة، أقف أمامها، وأحاول النظر، إلا أنّ الظلام دامس، لا يمكنني رؤية أي شيء.

إلى يساري، هناك باب غرفة، أتوجه إليه وأفتحهُ. ربّما هي غرفة نوم جاك، حيث كان ثمّة فراش صغير وشموع ورفوف من الكتب. أجلس على فراشه، أتحسّسه بيدي، على الفراش غِطاء تمّت

حياكته يدويًّا، شيء مناسب تماماً لمنزل قديم كهذا.

إلى جواري، هناك كرسي خشبي عتيق أمام النافذة، وهناك مكتب به عدة أقلام، وهناك ظرفٌ مُدَوّن فوقه: الولايات المتحدة الأمريكية، من المؤكد أنه يخصّ جاك، لا يمكنني تركه وشأنه، أشعر بالفضول الشديد، لذا قمت بفتحه.

داخل الظّرف كانت هناك حوالي عشرون أو ثلاثون صورة لأجزاء من الجسد، كان هناك صور لأقدام، لأصابع أقدام، لأفخاذ، لأذرع، صور مختلفة لا أعرف إن كانت تلك الأجزاء الجسدية كلّها تنتمي إلى شخصٍ واحد؟ ربما هي جزء من عمل فنّيّ ما أو مسرحيّ ربّما.

ربما مَن قام بالتقاطها هو جاك، لأنه أخبرني سلفاً أن النّشاط الوحيد الذي كان يستمتع بالقيام به هو التصوير، ربما لم يكن عليّ التفتيش في أغراضه ورؤية تلك الصّور.

على جدُران الغرفة أيضاً، كانت هناك عدّة صور، منها مناظرُ طبيعيةٌ ومشاهدُ وشخوصٌ لا يمكنني التعرّف إلى أيّ منها. جاك ليس واحداً منهم، الصّورة الوحيدة التي رأيتها في هذا المنزل لجاك، هي تلك التي ادّعى أنها صورته، وهو طفل صغير، إلا أني واثقة من أنها ليس صورته، ليست صورته على الإطلاق، ومن هذا المنطلق، يمكنني القول بأنني لم أرَ أي صورة لجاك إلى وقتنا الحاليّ.

التقطتّ صورة أخرى من فوق الرّفّ، إنها صورة لفتاة شقراء

ترتدي طوق شعر. هل هذه هي حبيبة جاك خلال سنوات المدرسة الثانوية؟ لقد أخبرني جاك أنها كانت تحبّه كثيراً لكنّهُ لم يكن يبادلها الشّعور نفسه. أخبرني بأنها كانت طويلة، وشعرها بُنّيّ، لكن تلك الفتاة شقراء مثلي وقصيرة، تُرى مَن تكون؟

في الخلفيّة كان هناك شخص آخر، يبدو أنه مُتعَلِّق بشدة بتلك الفتاة، كان ينظر إليها بلهفة، لم يكن جاك في الصورة، تُرى هل قام جاك بالتقاطها؟

أقفز مذعورة فجأة، عندما لمس أحدهم كتفي من الخلف.

كان والد جاك.

- أخفتني للغاية، قلتُ له.

- أنا آسف، اعتقدت أنكِ هنا برفقة جاك.

حينها ارتبكت بعض الشيء، سقطت من يدي الصورة، انحنيت إلى الأسفل لالتقاطها، وعندما رفعت رأسي مرة أخرى، كانت هناك ابتسامة عريضة على وجه والد جاك، وهناك ضمّادة جروح إضافية إلى جانب تلك التي رأيتها أوّل مرّة.

- لم أقصد إخافتك، أردت التأكد فقط من أنكِ بخير، لقد كنتِ ترتعشين.

لا أعرف ما الذي يتحدث عنه؟ لم أكن أرتعش، وكيف يمكنني ذلك؟ هل أشعر بالبرد؟ أجل، أشعر بالبرد منذ جلوسنا على طاولة الطعام.

- هل أنتِ واثقة من أنكِ بخير؟

- أجل، أنا بخير.

كان والد جاك مُحقًّا، عندما نظرت إلى يديّ، وجدتهما ترتعشان.

- لقد اعتاد جاك على تمضية وقت طويل للغاية في غرفته تلك، كان يقرأ كل شيء بشراهة، كذلك كان يُدَوّن كل شيء يفكر فيه في مذكراته الخاصة، بعد أن انتقل من المنزل، فكرنا في أن نجعل تلك غرفته، غرفة لاستقبال الضيوف، إلا أن الأمر بدا مُعقّداً بعض الشيء، بسبب كثرة الكتب هنا. جاك لا يحبّ أن يلمس أحد كتبه، وكتاباته.

- هذا رائع، ما زلت ألحظ أن جاك يقضي معظم الوقت في الكتابة.

- هذه هي طريقته لاكتشاف العالم.

- الجوّ هادئ للغاية هنا. أعتقد أن هذا طقس مناسب للكتابة.

- أجل، وللنوم أيضاً، ولكنك كما تعلمين أن جاك لا ينام بشكل جيد. أتمنى أن تناما هنا الليلة، لا داعي للعجلة. لقد أخبرت جاك بذلك، لدينا المزيد من الطعام من أجل الإفطار، هل تحبين تناول القهوة؟

- سأترك هذا القرار لجاك. لديه عمل في الصباح، لكني أحبّ القهوة، أجل.

- هل لديه عمل؟ قال والد جاك وعلى وجهة دَهشة.

- على أيّ حال، حاولا أن تبقيا هنا، ليلة واحدة على الأقل، وأريدك أن تعرفي أننا نشعر بسعادة فائقة لقدومك إلى هنا، نحن ممتنّان أيضاً لما تقومين به؟

- ما الذي أقوم به؟ عذراً أنا لا أفهم تحديداً ما الذي تقصده؟ وأنا أيضاً سعيدة بوجودي هنا معكم.

- نحن سعداء للغاية بعلاقتك مع جاك، جاك محظوظ بتعرّفه على فتاة مثلك.

- جاك يتحدّث عن المزرعة دائماً.

- أجل، لقد كان جاك مُتلهّفاً للغاية لدعوتكِ إلى هنا، في الحقيقة كنا متلهّفين جميعا، ولم نكن نصدق أنك ستحضرين إلى هنا بالفعل بعد تلك الفترة الطويلة.

- أية فترة طويلة؟

التفت والد جاك حوله، ثم تقدم خطوة تجاهي، وهو يقول:

- زوجتي ليست مجنونة، صدّقيني. أنا آسف للغاية بشأن ما حدث الليلة.

- ماذا؟

- أعرف أنك تظنين أنها مجنونة أو مختلة عقلياً، ولكن صدقيني الأمر برمّته يتعلق فقط بمشكلة السَّمع لديها، تجعلها تحت ضغط

مستمرّ.

للحظة لم أكن أعرف بماذا أردّ عليه، ثم قلت له:

- في الحقيقة لم أكن أعتقد ذلك مطلقا. لم أظنّ أنها كذلك بالتأكيد.

- ما قالته الليلة حول تلك الأصوات التي تسكن رأسها ليس صحيحاً بالضبط، زوجتي تسمع همسًا فقط.

- يبدو الأمر قاسياً عليها للغاية.

- قد يتطلب الأمر زراعة قوقعة، إذا ساء وضع السَّمع أكثر.

- لا يمكنني تخيّل ذلك.

- وكل تلك الابتسامات العريضة على وجه زوجتي ليست صادقة. هذا كلّه نتيجة لكل هذا الألم الذي اعتادت عليه، لقد كنت مثلك في بداية الأمر، كانت تخيفني ابتسامتها تلك، إلا أنه شيئاً فشيئاً اعتدت الأمر.

- لم ألاحظ شيئاً كهذا.

التفت والد جاك حوله مرة أخرى، وقال لي:

- أنا سعيد للغاية، أنكِ إلى جانب جاك. أنتما تبدوان مثاليْن، تماماً مثل العلاقة بين الرياضيات والموسيقى، أليس كذلك؟

لا أعرف ما الذي عليّ قوله رداً على ذلك، لذا أومأت برأسي وقلت له:

- في الواقع أنا مسرورة للغاية لأني تعرفت على جاك وكذلك لأني تعرفت الآن على والدته ووالده.

- جميعنا يحبك كثيرا، تحديداً جاك، هو في حاجه إليكِ.

أستمرّ في الابتسام له دون أن أتفوّه بكلمة.

أنا مستعدّة للذهاب الآن، في الواقع أريد أن أخرج من هذا المكان، جاك في الخارج، يقوم بتجهيز السيارة، وأنا هنا أنتظر والدته التي تقوم بتجهيز بعض المأكولات في المطبخ لنأخذها معنا في رحلتنا بالسيارة. أنا لا أرغب في تناول تلك المأكولات، ولكن كيف أقول لها ذلك؟

أنتظرها وحدي، لماذا أجلس في انتظار والدته، كان بإمكاني الذهاب لتجهيز السيارة، وكان بإمكان جاك أن ينتظر والدته بدلاً مني.

عادت أمّه مرة أخرى، وأعطتني الأطباق التي قامت بتجهيزها حتى أحملها معي لرحلتنا.

- جهزت لكما مأكولات عدة، قالت والدته.

- شكراً لكِ على تلك الليلة الجميلة، قلت لها.

- هل استمتعتِ بتلك الليلة حقّا؟ أترغبين في المكوث معنا هنا؟ هناك غرفة لكِ.

تبدو كأنها تتوسل حتى أبقى، كانت تتحدث إليّ وهي قريبة مني للغاية، يمكنني الآن رؤية خطوط وجهها، وتجعيداتها، لا.. لا أريد أن أتذكرها بتلك الحالة.

- نحن نرغب في البقاء معكما، ولكن جاك لديه عمل في الصباح، لذا علينا العودة.

قامت والدة جاك باحتضاني فجأة، وظلت دقائقَ هكذا، كأنها لا تريدني أن أرحل، وقمتُ باحتضانها أيضا.

- انتظري، لقد نسيت أن أعطيكِ شيئاً، قالت والدة جاك، وهي تهرول في اتجاه المطبخ مرة أخرى.

عادت بسرعة وهي تمسك بورقة مطويّة. قدّمتها إليّ، ثمّ قالت:

- هذه لكِ، لقد قررت إعطاءها لكِ، لكني نسيت.

- شكراً لكِ، قلتُ وأنا أحاول فتح الورقة، ولكنها طلبت مني ألاّ أفتحها الآن، وقالت إنها مفاجأة وعليّ ألاّ أفتحها إلا عندما أصل، فكان عليّ أن أسألها: أصِل إلى أين؟

لم تجبني، ابتسمت فقط وقالت لي:

- إنها رسمة.

- هل أنتِ مَن رسمتها؟

- اعتدت أنا وجاك على الرسم، والتلوين منذ أن كان جاك صغيراً.

- لدينا غرفة للرسم في منزلنا، كانت غرفتنا المفضلة.

- كانت؟

- أجل كانت، وما زالت، لا يهمّ.

- شكراً جزيلاً لك، لقد أعجبتني هذه الهدية، وستعجب جاك أيضاً بالتأكيد.

- لا، تلك الهدية لكِ وحدك، هديتك هي صورة مرسومة لجاك.

لم نتحدث أنا وجاك عن أيّ شيء منذ أن ركبنا السيارة. كنت أظن أننا بمجرد أن نصبح وحدنا سنتحدث عن كل شيء، سنناقش بعض الأمور، منها ما حدث في المساء مثلا. كنت أنوي أن أخبره بمحادثة والده لي في غرفة نومه، وكذلك عن حضن أمه لحظة توديعي، وهديتها، كنت أود أيضاً أن أسأله عن القبو المليء باللوحات في الأسفل، إلا أنني شعرت بأنني مجهدة للغاية، شعرت بأنني فقدت طاقتي، لذا فكرت في أن أؤجّل ذلك الحديث إلى الغد.

أنا مسرورة لأننا لم نمكث تلكَ الليلة في منزل أهل جاك، ليس لأنني لا أحب والديه. الأمر يبدو غريبًا إضافة إلى أنّني شعرت بإرهاق شديد. كما لم أكن أرغب في أن نتشارك أنا وجاك ذلك الفراشَ الصغير، كنت أرغب في النّومِ وحدي، وحدي تماماً.

ما زلت أفكر في ما حدث هذا المساء في منزل أهل جاك، ذلك المنزل الذي يبدو بارداً من الداخل، فقط يُدركك الدفء عندما تخرج منه.

لم يتحدث جاك البتّة عن تلك الليلة، ولا عن والديه، كأنه بمجرد خروجنا من المنزل، انسلخ تماماً عن كلّ ما حدث ومحاه من ذاكرته.

أحتاج إلى أن أنام ثلاثَ ليالٍ متواصلة، لم أحظَ بالنوم الجيد منذ أسابيع، أحتاج إلى النوم دون كوابيس، دون أفكار سلبية، أحتاج إلى النوم دون أن يقاطعني أحدٌ، دون أن يتصل بي أحد، أحتاج إلى أن أحصل على قسط كبير من تلك الراحة التي حُرمت منها فترة طويلة.

- من المضحك أن تجدي سيارات بهذا الشّكل في هذه الأيام، انظري إلى تلك السيارة بجوارنا، تبدو كصندوق، قال جاك وهو يشير إلى السيارة، ولكن الظلام دامس للغاية، لا يمكنني رؤية أي شيء.

- في الواقع كما أحب الأشياء المتألقة غير الفريدة، أنا أحب أيضا تلك المختلفة المتفردة وإن كان شكلها مضحكاً.

- تبعاً للتعريفات، لا يوجد شيء اسمه فريد للغاية، الأشياء تنقسم فقط ما بين فريد أو عادي.

- أجل، أجل، أعرف ذلك، قلتُ له وأنا أشعر بالتعب والملل

الشديد من مثل هذا النوع من المناقشات.

في الحقيقة لا يهمني التحدث عن أي موضوع آخر الآن، ما يشغل بالي هو أن نتحدث بشأن ما حدث تلك الليلة في منزل والديه، وعندما نصل إلى المنزل سوف أحصل على ما يكفيني من النوم.

- مَن كانت الفتاة في تلك الصورة الموضوعة في غرفتك؟

- أية صورة؟ أية فتاة؟

- الفتاة الشقراء التي كانت تقف في الحقل، الموجودة في غرفتك.

- أعتقدُ أنها ستيفاني، لماذا تسألين؟

- شعرت فقط بالفضول، الفتاة جميلة للغاية.

- هل كنت تواعدها؟ أم أنها كانت صديقتك فقط؟

- كانت ستيفاني جذابة، لم أرها كفتاة جميلة يوما ما.

- لقد تواعدنا لفترة بعد المدرسة الثانوية.

هل كانت هي تدرس الكيمياء الحيوية مثلك أيضا؟

- لا، بل كانت عازفة تدرس الموسيقى.

- على أيّ آلة كانت تعزف؟

- لقد كانت تعزف على عدة آلات، لقد كانت أول شخص

يجعلني أتعرف إلى عالم الموسيقى والعزف والأغنيات، وهكذا.

- أما زلت تراها؟

- لا، لم تنجح علاقتنا معاً.

لم يكن جاك ينظر إليّ وهو يتحدث، بل كان ينظر إلى الأمام ويقضم أحد أصابعه. يبدو من ذلك أن علاقته مع تلك الفتاة كانت مختلفة ومُميَّزة. فرصتي الآن أن أضغط عليه أكثر، وأحاول أن أعرف المزيد عن علاقتهما وعن تلك الفتاة، ولكن ما الفائدة من كل ذلك، وأنا أعرف جيداً أن علاقتنا على المَحكّ.

- مَن كان ذلك الولد الذي كان يقف وراءها؟

- مَن؟

- الولد الذي كان يقف وراءها، كان ينظر إلى تلك الفتاة، ولم يكن أنت.

- لا أعرف، ربما عليّ أن أرى الصّورة مرة أخرى حتى أتذكّره، وأعرف مَن يكون.

- من المؤكّد أنّك تعرفه.

- لم أنظر إلى تلك الصّور منذ وقت طويل.

- إنّه الشّخص الوحيد معها في الصّورة، كيف لا تعرف مَن يكون إذن؟ الغريب أن هذا الولد.........

أشعر فجأة بأنني لا أعرف كيف يمكنني صياغة ما أرغب في

قوله، ولماذا لا يمكنني قول ما أريد؟

غرقنا في صمتٍ طويل للحظة، وحينها اعتقدت أن جاك لا يرغب في أن يتحدّث حول ماهيّة ذلك الشّخص. ربما يرغب في أن يتجاهل سؤالي.

- ربما يكون أخي، أعتقد أنّه كان في إحدى تلك الصّور.

- ماذا؟ هل لديك أخ؟ لماذا لم تخبرني عنه من قبلُ؟

- اعتقدت أنكِ تعرفين.

- لا، هذا جنون! كيف لا أعرف معلومة كهذه من قبلُ؟

- هل كنتما مقرّبان من بعضكما بعضا؟

- أنا لم أقل ذلك.

- لماذا؟

- أمور عائلية مُعَقّدة، لقد كان يشبه أمي كثيراً.

- وأنت لا تشبهها؟

لدقيقة، لم يتحدث جاك، كان يحدق في وجهي، ثم نظر إلى الطريق، نحن وحدنا هناك، الوقت متأخر للغاية، ثم سألني جاك فجأة:

- هل هذا يبدو طبيعياً بالنسبة إليكِ؟

- ما هذا؟

- منزلي ووالداي؟

- فقط أجب عن سؤالي، أريد أن أعرف. أجل كل شيء بدا طبيعياً بالنسبة إلي.

قلتُ لجاك وأنا أفكر بيني وبين نفسي بأنّي لن أخبره بحقيقة شعوري تجاه منزله ووالديه. لا، لن أخبره بأي شيء من هذا الآن.

- أنا لا أحاول أن أتطفل عليك يا جاك، ولكن حسناً لديك أخ، وكيف يشبه هذا الأخ والدتك؟ في أي شيء يشبهها؟

لا أعرف كيف ستكون ردّة فعله حيال سؤالي، أعتقد أنه سيقوم بتغيير الموضوع، ولكن هذا هو الوقت المثاليّ للسؤال، ليس هناك وقت أفضل من ذلك.

كان جاك يفرك جبينه بإحدى يديه، ويضع اليد الأخرى على عجلة القيادة.

- منذ سنوات قليلة، تورّط أخي في المزيد من المشاكل والأزمات. كنّا نظنّ في البداية أنّ الأمر ليس جدّياً. لقد كان أخي مُنعزلاً تماماً. لم يكن قادراً على التّواصل مع الآخرين. اعتقدنا أن هذا مجرّد إحباط، إلاّ أنّ حالته بدأت تتطوّر بشكل ملحوظ، فمثلاً بدأ باللّحاق بي في كلّ مكان أذهب إليه. لم يقم بشيء خطير، ولكنّه كان يراقبني وهذا أمر غريب ومخيف للغاية في حدّ ذاته. طلبت منه عدّة مرّات أن يتوقّف عن ذلك، ولكنّه لم يتوقّف عمّا يفعله، فكّرت في قطع علاقتي به نهائيًا، وإخراجه من حياتي إلى الأبد، لم يكن ذلك

الشّخص الذي لا يقدر على أن يعتني بنفسه، بل كان يعتني بنفسه. ما زلت لا أصدّق أنه أصبح مريضاً نفسيًّا. أعتقد أنه يحتاج فقط إلى إعادة تأهيل. أؤمن بأنه عبقريّ لكنّه عبقريّ غير سعيد، من الصّعب أن يقضي الإنسان كلّ هذا الوقت بمفرده. احتاج أخي أشياءَ كثيرةً، كان يطلب مني أشياء معيّنة ولكن لم يكن بيدي حيلة، لقد قلب هذا الأمر حياتنا رأساً على عقب.

أفهم الآن لماذا بدا والدا جاك غريبيْ الأطوار، ولماذا يتصرف جاك نفسه بغرابة بعض الوقت، ولكنّ أمرا كهذا يمكن أن يؤثر على حياتي أنا أيضاً، لذا سألته على الفور:

- ما الذي تعنيه بأنه يلحق بك في كل مكان؟

- هذا لا يهم الآن، لقد انتهى كل هذا.

- ولكني مهتمّة بأن أعرف المزيد.

- كان أخي في طريقه لأن يصبح أستاذاً جامعياً، لكنه لم يستطع التّعامل مع البيئة المحيطة به. كان عليه أن يترك عملَه، كان بإمكانه القيام بوظيفته على أكمل وجه. لكنّ الأمر كان يتعلّق دائماً بطريقته في التّواصل مع الآخرين، وتفاعل النّاس معه، كانت طريقةُ تعامله مع زملائه صعبةً للغاية بالنّسبة إليه، الجزء الغريب في الأمر أنه لم يكن يكره النّاسَ، بل كان يحبّهم، ولكنّ الفكرة أنّه لم يكن لديه القدرة على التّواصل معهم بشكل طبيعيّ.

- كيف ذلك؟

- بدأ يرتدي ملابسي.

- يرتدي ملابسك؟

- أجل كما قلت لكِ، كانت لديه بعض المشاكل النفسيّة، لكنه أفضل الآن، أفضل بكثير.

- هل كنتما مقرّبين من بعضكما بعضا قبل أن يمرض؟

- لم نكن مقرّبين يوماً، لكننا كنا مُتشابهين للغاية، في الذكاء والمنافسة وغير ذلك. خلق ذلك رابطة بيننا، لذلك لم أكن أتصور البتّة أنه سيصاب يوماً ما بمرض عقلي، هذا الأمر يجعلك تفكرين في أنّكِ بالفعل لا تعرفين الناس. لقد حدثَ ذلكَ معَ أخي، ولكن بعدَ ما حدث آمنت بأنّي لم أعرفه يوماً.

- يبدو الأمر قاسيا عليكما للغاية.

- أجل.

قاد جاك بسرعة كبيرة، وهذا ليس جيداً، لأن الظلام دامس للغاية بالخارج.

- إذن هل هذا ما كان يتحدث والدك بشأنه عندما قال لي إنّ والدتك تعرضت لضغطٍ شديد؟

- متى قال لكِ ذلك؟ ولماذا يقول لك شيئاً كهذا؟

- لقد وجدني في غرفتك، لذا أتى إليّ، وذكر لي حالة والدتك.

- هل قال إنها مصابة باضطراب نَتف الشعر؟

- ماذا؟

- اضطراب نَتف الشعر، لقد كان أخي أيضاً مُصابًا به، لقد قامت أمي بنَتف شعر حواجبها، ورموش عينيها بشكل جنوني، والآن تقوم بنتف شعر رأسها، يمكنني ملاحظة ذلك من خلال زيارتنا اللّيلة.

- يا إلهي! هذا مُرعب.

- أمي ضعيفة للغاية، تتعذّب بسبب ما حدث، ستكون الحالُ أفضلَ، في الواقع لم أكن أرغب في أن أدعوكِ إلى هنا من أجل ذلك، ولكنّي أردتُ أن أجعلك تشاهدين أسرتي، لتعرفي مَن أنا، ومن أين أنحدر.

إنّها المرّة الأولى التي أشعرُ فيها بأنّني مقرّبة من جاك للغاية. لم يتحدّث معي جاك هكذا من قبلُ ولم يتحدّث معي بتلك الصّراحة، لم يكن عليه أن يخبرَني بكلّ هذه التّفاصيل، إلاّ أنّه أخبرني بما حدث اللّيلة. سيجعلني أتمهّل في اتّخاذ قراري بشأن إنهاء علاقتي مع جاك.

- جميعُ العائلات لديها أسرار غريبة.

- شكراً لمجيئك.

- لقد تحدّثنا مع كلّ شخص عمل معه تقريباً حتّى نستطيع فهم ما حدث، لقد عانى من عدّة مشكلات جسديّة لاحظها الجميعُ. كان لديه طفحٌ جلديّ على ذراعه ورقبته، وكان جبينُه يتعرّق على

الدّوام، لقد رآه شخصٌ ما منذ أسابيعَ، جالساً في مكتبه في حالة ذهول عجيبة، يتأمّل الجدُران.

- يبدو الأمر مُخيفاً للغاية.

- أجل، يبدو كذلك الآن، ولكن لم يكن الأمر جليًّا في السّابق، بل كان سِرّيّاً تماماً مثل مشاكله الصّحّيّة. كانت هناك عدّة حوادث غريبة وقعت في السّابق، إلاّ أنّه لم يتدخّل فيها أحد. فكان يقوم مثلاً بتشغيل الموسيقى بصوتٍ عالٍ للغاية في أوقات استراحته، وعندما يطلب أحد زملائه خفض صوت الموسيقى، كان يتجاهلُهم ويقومُ برفع صوتها أكثرَ.

- هل قام أحدٌ بتقديم شكوى رسميّة ضدّه؟

- شكوى رسميّة؟ لماذا؟ لأنّه يقوم بتشغيل الموسيقى بصوتٍ مرتفع؟

- أجل، معك حقّ، ليس هناك مبرّر لتقديم شكوى ضدّه.

- لقد قال لنا الشّهود بأنّه كان يكتب كثيراً في مذكّراته، كثيراً جدًّا، لكنْ لم يعرف أحد ما الذي يكتبه في تلك المذكّرات.

- لقد عثرنا على تلك المذكّرات.

- حقًّا؟ ما الذي يوجد فيها؟



- كتاباته.

- لقد كان خطّه رائعاً وأنيقاً.

- ما محتوى تلك المذكّرات؟

- لم نقرأه بعدُ.

- هل تريدين أن نتوقّف من أجل شراء بعض الحلوى، قال جاك.

لقد توقّفنا عن التّحاور منذ وقت قصير، لم أعد أسأل جاك عن والديْه، لا أريد أن أزعجه أكثر من ذلك، قد تكون الخصوصيّة شيئًا جيّدًا، لقد بدأت أشعر كأني أفهمه الآن، بدأت ألتمس له الأعذار عن كلّ ما مَرّ به، بدأت أتعاطف معه كلّيًّا.

- أجل، دعنا نتوقّف.

- ولكن هل ترغبين في ذلك؟

- لست مهتمّة، ولكن سأكون سعيدة إذا كنت ترغب في ذلك.

- هناك محلّ واحد فقط في طريقنا وهو ديري كوين.

يخيّمُ الظلام في كلّ الأرجاء وكذلك الصمت، وكلانا مُجْهدان من الرحلة الطويلة وها هي تمطر الآن، أمطاراً خفيفة. أضحك، وأنا أنظر من النافذة.

- ما الذي يضحكك؟

- الأمر مضحك للغاية في الواقع، لأنني امتنعت عن تناول الحلويات في منزل والديك بسبب أنها تحتوي على بعض الألبان، وها نحن الآن مُتّجهان إلى محلّ حلويات ملكة الألبان، قلتُ وأنا

أفكّر في أن هناك أشياء أخرى أضحكتني، ولم أحكها لجاك، بل احتفظت بها لنفسي.

خرجنا من السيارة، كان الطريق فارغاً، وكان هناك كابينة تليفون في زاوية الطريق، كانت الوحيدة هناك، بجوارها صندوق قمامة.

- لديّ صداع رهيب، أعتقد أنّني متعبة للغاية.

- هل هو صداع نصفي؟

- أجل، ولكن سأكون بخير، لا تقلق.

أصبحت الأمطار شديدة الآن، ها هي تهطل بغزارة. من المفترض أن نصل إلى المنزل قبل أن تسُوءَ حالة الطقس.

أحتاج إلى النوم بعمق.

عندما توجهنا إلى محل ملكة الألبان، وجدناه فارغاً ولم يكن هناك أحد سوانا، ولا عجب في ذلك، لأنه سيغلق بعد ثماني دقائق.

قرأ جاك قائمة الطعام، وحينها تمتم قائلاً:

- أنا واثق بأنّ لديهم حلوى من دون ألبان.

شرع جاك فعلا في الإمساك بملعقته، والتأهب لتناول الطعام، ولكنّني أرى تصرفه غريبًا للغاية، لأنه يتأهب لذلك حتّى دون أن نتأكد إن كان هناك طعام يناسبني، خالٍ من الألبان، بسبب الحساسية التي أعاني منها.

ما زال لدينا المزيد من الساعات حتى نصل إلى المنزل، ربما تصبح رحلتنا أطول إذا ساء الطقس أكثر وربما كان يجدر بنا قضاء تلك الليلة هناك في المزرعة ولكنّني لم أكن أشعر بالارتياح.

ها هو جاك يتثاءب.

- هل أنت واثق من أنك بخير أم تريدني أن أقود إلى المنزل بدلاً منك؟

- لا، لا.. أنا بخير.

- لديهم نكهات الليمون المُثلج، أنا واثق من أنها ستعجبك، أتريدين واحداً؟

- أجل.

تقف النادلة أمامنا، وإلى جوارها فتاة أخرى، ربما نادلة مثلها، تتبادلان النظرات وتقهقهان.

تسألني النادلة: هل أنتِ مُصَابَة بالحساسيّة؟

- أجل، تجعلني الحساسيّة تجعلني أشعر بعدم الارتياح فقط، لكنها لن تقتلني.

تحدّق الفتاة في وجه جاك، ثم تهمس لرفيقتها تلك، وتضحكان مرة أخرى.

لا أعرف ما المُضحك في الأمر؟ تتعامل تانك الفتاتان معنا كأنّهما تقومان بخدمة أصدقاء والديهما، أو كأنهما التقتا فجأة معلّمهما في

المدرسة الثانوية، أعتقد أنهما تتعاملان معنا بغرابة شديدة.

ظهرت فتاة ثالثة فجأة من العدم، تقدمت نحوي، وقامت بتقديم اللّيمون المُثَلّج ثم قالت:

- أعتذر للغاية بشأن تلك الرائحة. العُمّال يقومون بأعمال الدّهن.

- أعمال الدّهن؟ هنا في محلّ حلويات؟ على العموم ليست هناك مشكلة.

باغتني شعور غريب لا يعرف الرِّيبة، أنا أعرف تلك الفتاة، أعرفها جيّداً، ربما لا أتذكر أين، ومتى عرفتها؟ ولكني أعرفها.

شعرها، هيئتها، وجهها، بنيتها الجسدية، كلّ شيء يتعلّق بتلك الفتاة، رأيته من قبلُ.

لم تنطق الفتاة بحرف، بل وقفت صامتة، تعدّ لي اللّيمون، أعرف أنّ هذا الشّعور غريب للغاية، ولكنْ، هذا ما حدث. أنا أعرف تلك الفتاة، ولكنّي لم أقل شيئاً من هذا لجاك.

الفتاة نحيلة للغاية وهشّة ولديها شعر طويل مُستَرسَل ينسابُ على ظهرها. تبدو قلقة للغاية وضعيفة. لا ترتدي أقراطًا، ولا ترتدي قلادة، وهناك طفح جلديّ رهيب على يدها الصّغيرة، ثمّة خطب ما بخصوص تلك الفتاة. شيء غريب وغامض يجعلني أشعر بالسّوء والأسى حيالها.مكتبة .. سُر مَن قرأ

توجد أعلى رسغها تَورّمات واضحة، ضخمة كفاية لملاحظتها.

تزداد احمراراً أعلى ذراعها، أنظر إليها بفضولٍ شديد، تبدو مُلتَهبة وبها طبقات من القشور. من المؤكد أنها تحكّها كثيراً. عندما رفعت رأسي، شاهدتها تحدّق فيّ، حينها تورّد وجهي خجلاً، ونظرت إلى الأرض.

لا يلتفت جاك إلى أيّ من هذا، وكأنه ليس معي، لا يعير أيّا من هذا أيّ انتباه، فجأة أسمع ضحكات إحدى الفتيات الأخريات ساخرة، وها هي تلك الفتاة النّحيلة، تحكّ تلك التورّمات. لا يمكنني مواصلة النظر، لأنها تحكّها بشدة كأنّها تريد انتزاعها من ذراعها.

مما لا شكّ فيه أن تلكَ النّادلات، لا يرغبْن في العمل هنا في محلّ الحلوى، لا يرغبن في العمل هنا ليتنفّسن روائح المُعقّمات ليل نهار، وسط تلك الإضاءة المُشعّة والأكياس البلاستيكية وماكينات صنع الآيس كريم والعصائر وهذا الضّجيج المستمرّ الذي يدقّ فوق الرّؤوس.

وما يزيد الأمر سوءاً عندما يقوم زملاؤك بالسّخريّة منك ومضايقتك، ألهذا السبب تبدو تلك الفتاة النّحيلة شديدة الاضطراب؟

في الحقيقة، لا يتعلّق الأمر بمحلّ الحلوى هذا فحسب، بل يتعلّق بالجوّ العام لتلك القرية الغريبة. في الواقع أيضاً لماذا أقول إنّها قرية؟ ما الأمر الذي يجعلنا نقول عن مكان مّا إنّهُ قرية؟ وما الذي يجعلنا نقول عن مكان ما مدينة؟

أنا لا أرى هذا المكان قرية، ولا أراه مدينة. بل أراه مكانًا مُنعزلًا عن كلّ شيء وبعيدًا كل البعد عن أنظار العالم.

قامت الفتاة النّحيلة بتقديم اللّيمون إليّ، حينها كانت ترتعش.

- شكراً لكِ، قلتُ لها، ولم أكن أتوقّع منها ردًّا، لذا عندما رددن عليّ، شعرت برجفة مفاجئة تهزّني بقوة.

- أنا قلقة، قالت الفتاة هامسةً.

عندها التفتّ حولي لأرى إن كانت زميلتاها تستمعان لما تقوله، فوجدتهما منشغلتين بالحديث مع بعضهما البعض، حتّى جاك لم يكن مُنتبهاً كعادته.

- عفواً، ما الذي تقولينه؟

نظرت الفتاة في تردّد إلى الأسفل، وهمست مرة أخرى:

لا يفترض بي الحديث، أعرف ذلك، ولكني أعرف جيّداً ما الذي يجري هنا، الأمر سيء، سيء للغاية.

- هل أنتِ بخير؟

- لم يكن عليكِ الذهاب.

بعد أن تفوّهت الفتاة بتلك الكلمات، شعرت كأن نبضات قلبي تقفز من مكانها، بينما كان جاك يتأهّب لتناول حلواه.

في ذلك الوقت، ضحكت إحدى النادلات بصوتٍ أعلى، بينما ما زالت تلك النادلة النحيلة تقف أمامي، شعرها يغطّي وجهها.

- ما الذي تخافين منه؟

- الأمر لا يتعلق بممّ أخاف، الأمر يتعلق بمَن أخاف عليه.

- مَن هو ذلك الشخص الذي تخافين عليه؟

- أنتِ، قالت الفتاة وهي تحمل الكؤوس ثم اختفت في طريقها إلى المطبخ.

كان جاك غير منتبه كعادته، خرجنا من محلّ الحلوى وتوجهنا إلى السيارة. لم يتحدث معي قَطُّ عن الفتيات في محلّ الحلوى، في بعض الأحيان، أجده غير واعٍ بعديد الأمور التي تحدث حولنا، غارقاً تماماً في ذاته وأفكاره الخاصّة.

- هل رأيت تلك الفتاة؟

- أية فتاة؟

- تلك التي قدّمت لي عصير اللّيمون؟

- كان هناك عديد الفتيات.

- لا.. مَن قامت بتقديمه كانت فتاة واحدة، النّحيلة ذات الشّعر الطويل.

- لا أعرف، لم أنتبه، ألم تكن كل فتيات محلّ الحلوى نحيلات؟

أريد أن أتحدث أكثر إلى جاك، أريد أن أقول له المزيد عن تلك الفتاة، أريد أن أخبره عن طفحها الجلدي، وعن عينيها، وعمّا همست لي به في المحلّ، كم أتمنى أن تجد شخصاً يمكنها التحدث

إليه عن كلّ مخاوفها، الأمر ليس منطقيًا على الإطلاق، أن تشعر بالخوف عليّ!

- هل استمتعت بمشروبك يا جاك؟

- أجل، كان جيداً.

من المحتمل أن تكون هذه آخر مرة أقضيها مع جاك في سيّارته، أعرف أنه ربّما عليّ ألا أفكر في الانفصال عنه، ربّما عليّ أن أتمهّل قليلاً، وأن أستمتع بتلك العلاقة، أن تقع في غرام شخص ما، الأمر يحتاج إلى منح هذا الشّخص الفرصة الكاملة العادلة، ولكن ما الذي يعنيه ألا يكون باستطاعتك أن تخبر ذلك الشّخص بما تفكر فيه؟

ما أفكّر فيه هو إشارة إلى أن تلك العلاقة ليست جيّدة، ماذا لو كان جاك يفكّر أيضا في إنهاء علاقته بي، ماذا لو كانت مسألة وقت فقط بالنّسبة إليه؟ ماذا لو انفصلَ عنّي قبل أن أنفصلَ عنه؟

عليّ ألا أتردّد في إنهاء تلك العلاقة، عليّ إنهاؤها على الفور.

كلما استمعت لتلك الجملة التقليديّة المعروفة، التي يقولها أحد الطّرفين، وهم على مشارف الانفصال «الأمر ليس خطؤك، الأمر يتعلّق بي. أنت تستحقّ من هو أفضل منّي». كلّما سقطت في نوبة من الضّحك، ربّما لأنّي أشعر بأنّ تلك العبارة تتّفق مع ما أشعر به تجاه جاك، فهو شخص ذكيّ ومثاليّ ووسيم. رجل صالح، طموح، كلّ صفة جيدة تنتمي إلى جاك، ولكنّي مع هذا كلّه لا يمكنني

الاستمرار في تلك العلاقة، لأنّي أشعر في قرارة نفسي بأننا غير متوافقين.

لذا أنا على أتمّ الاستعداد أن أقولها له حينها، أجل سأقول له حينها: جاك، الأمر ليس خطؤك، أنت شخص رائع تستحقّ مَن هي أفضل مني.

- يمكننا التخلص من فضلات طعامنا بإلقائها في مكان ما على الطريق. في الواقع هناك مدرسة قديمة، مدرسة ثانوية على بعد عدة خطوات من هنا. ما رأيك في الذّهاب لإلقاء مهملاتنا هناك؟

- هل من ضرورة أن نذهب إلى هناك لإلقاء تلك المهملات؟ بإمكاننا إلقاؤها هنا من النّافذة.

- المكان ليس بعيدا، في الواقع، لا أرغب في إلقاء المهملات من نافذة السيارة، يمكنك اعتبارها فرصة إضافية لاستكشاف المنطقة.

في الواقع، ما قاله جاك حول وجود فرصة ذهبية لاستكشاف تلك المنطقة أضحكني، أية منطقة تلك التي أرغب في اكتشافها، وأنا لا أرى في هذا المكان سوى الظلامِ والرياحِ؟

انحدرت السّيّارة إلى جهة اليسار بعد دقائق معدودة، ثم قال جاك:

- هنا في الأسفل، ها هي المدرسة.

- ألم تأتِ إلى تلك المدرسة منذ وقت طويل؟ من الواضح أنها كانت بعيدة للغاية عن مكان منزلك.

- أنا لم أكن طالباً هنا أبداً، لكن قدت منذ فترة في هذا الطريق، جوار تلك المدرسة.

كانت الطريق وعرة للغاية، لم يكن باستطاعتنا رؤية أي شيء سوى الظلامِ وصفٍّ من الأشجار على جانب الطريق. وضعت يدي على النافذة لأتحسس الزّجاج، كان بارداً للغاية.

- كم يستغرق الوقت حتى نصل إلى هناك؟

- لا أعرف، لا أتذكر.

لا أعرف لِمَ علينا الذهاب إلى تلك المدرسة؟ لِمَ لا نرحل ببساطة؟ أريد الوصول إلى المنزل والاستحمام وتنظيف نفسي والسّقوط في النوم العميق، أريد أن أنسى كل هذا. كم أتوق إلى أن ينتهي كل ذلك.

- أراهن على أن هذا المكان يكون رائعًا في النهار، أقولها وأنا أحاول الحفاظ على إيجابيّتي.

- أجل، مكان هادئ ومُنعَزِل.

- كيف حال الطريق؟

- زَلِقٌ وضيّق للغاية. كلّما ظننت أننا نقترب من وجهتنا، اكتشفت أننا ما زلنا بعيدين.

بدأت أشعر بالقليل من القلق والتوتّر. تعبت من رحلتنا تلك على الطّريق، تعبت من جولتنا في المزرعة، تعبت من لقاء والديه،

متوتّرة بشأن ما قاله لي والده، بشأن ما قاله لي جاك عن أخيه، متوتّرة بشأن كل شيء حول تلك الرحلة.

كان جاك مُحقًّا، ها نحن وصلنا إلى تلك المدرسة الثانويّة القديمة، وها أنا أتأمل ذلك البناء الضخم العتيق. أشعر كأني أتوه فيه.

- هل تخيّلتِ البناء بهذا الشكل؟

- كيف لمدرسة أن تُوجدَ هنا في العراء؟

- من المؤكد أن هناك مكانا ما من أجل إلقاء المهملات، قال جاك، وهو يحاول إبطاء السيارة حتى ننزل منها.

- هناك، في تلك المنطقة، قلتُ لجاك وأنا أشير إلى مكان ما من أجل التخلص من المهملات.

كانت هناك دراجة مهجورة، جوارَها أكياسُ قمامة خضراء وإطارات نوافذ.

- بالضبط، سأعود حالاً يا كأي. قالَ جاك وهو يحمل المهملات بكلتا يديه وينزل من السيارة تاركاً المحرّك يدور.

أراقب جاك وهو يمشي، حتى يصل إلى مكان إلقاء المهملات. يمشي جاك منحنياً أكثر تقوّساً. كنت أعتقد أن هذا الانحناء بسبب البرودة الشّديدة وسقوط الثّلج ولكن بعد تأملي هذه هي مشية جاك الطبيعية بإمكاني تمييزها من بين آلاف الأشخاص.

وقف جاك أمام صندوق القمامة، فتح غطاء الصندوق، حدق في الداخل ثم قام بإغلاقه مرة أخرى، دون أن يلقي بالمهملات.

بعدها بثانية، ابتعد جاك عن الصندوق ومشى في اتجاه آخر بعيداً عن اتجاه السيارة، تُرى إلى أين يذهب؟

لا يمكنني أن أرى شيئاً وسط كل هذا الظلام، ولا يوجد إلاّ ضوء أصفر خفيف قادم من سطح المدرسة الضخمة، تُرى مَن يذهب إلى تلك المدرسة المنعزلة؟ بالتأكيد مَن يذهب إليها هم أولاد المزارعين.

إلى أين يذهب جاك بحق الجحيم؟

أحاول الالتفات يميناً ويساراً، ولكن لا يمكنني أن أراه بعد، وها هي الأمطار تهطل بكثافة ولا أعرف ما الذي عليّ فعلُه.

لم أقضِ في حياتي ليلة أمام إحدى المدارس. المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى مدرستي ليلاً ما زلت أتذكر كم كنت أرتعد من الخوف حينها، عندما نسيت شيئاً لا أتذكر ما هو وعدت إلى الطّابق الأعلى في المدرسة. قمت بالدقّ على الأبواب في خوفٍ وذهولٍ وعندما دخلتُ كان الباب الأماميّ مفتوحاً. حينها هرولتُ مسرعة عبر القاعات الخالية تماماً إلى حيث الدّرج الخاصّ بكتبي المدرسية، وحينها سمعت صوتًا في الخارج، عندما استرقت النّظر وجدتُ الحارس الليليَّ. كان منغمساً في أعمال التّنظيف، وقفت أراقبه في صمتٍ دون أن يلاحظني. حينها قام بتشغيل أسطوانة مّا، كان

هناك صوت أحدهم، كانت نبرة الرّاوي تتغيّر من حينٍ إلى آخر بغرابة. كان الحارس يرتدي نظّارتين، وكان شعره أشعثَ، لم يكن يتحرك بسرعة، بل كان يعمل ببطء، ولأنّ الحارس كان شديد الدقة في تأدية عمله، لم يلحظ وجودي.

من المؤكد أن أولئك النادلات اللواتي يعملن في محلّ الحلوى، طالبات في تلك المدرسة.

أتساءل بيني وبين نفسي تُرى أين جاك؟ إلى أين ذهب الآن؟

أحاول فتح باب السيارة، الأمطار تهطل بكثافة، لا أكاد أتمكّن من الخروج، أبحث عن جاك، لا أرى شيئاً في هذا الظلام الدامس.

- جاك؟ أين أنت؟ من فضلك تعالَ إلى هنا.

لكني لم أحصل على إجابة، لا أعرف إن كان جاك في الخارج أم لا؟ لا يمكنني أن أرى أي شيء.

أترك باب السيارة مفتوحاً ثوانٍيَ قليلةً، ولكنه لم يأتِ.

أغلق باب السيارة، لا يمكنني احتمال تلك الثّلوج التي تنزلُ بشراسة، لا أعرف أين أنا؟ ولا أعتقد أنه بإمكاني تحديد موقعي على الخريطة. أعتقد أن هذا المكان المُنعَزِل لا وجود له على الخريطة.

وها هو جاك يتركني وحدي، ويرحل، وها أنا أتجمّد من الخوف.

لا أرى أيّة سيارة تمرّ بالجوار، ولو مجرّد سيارة واحدة المكان

مُنعزل للغاية، لا أعرف ما الذي عليّ فعلُه؟ أفكر في أولئك النادلات اللاتي أظهرت ملامحهن علامات التعجّب والتساؤل عند رؤيتي أنا وجاك في محلّ الحلوى. من المؤكد أن هذا السؤال حاصرهن عند رؤيتنا: تُرى ما الذي أتى بهنّ إلى هنا؟ إلى هذا المكان المهجور؟

وأنا نفسي لا أعرف لماذا أصر جاك أن نأتي إلى هذا المكان؟ إلى تلك المدرسة القديمة؟

وما معنى ما قالته لي تلك النادلة النحيلة، ذات الطفح الجلدي، أنها خائفة عليّ؟ ما الذي تخاف منه؟ ولماذا أنا تحديداً؟

كان عليّ أن أعرف، كان عليّ أن أفعل شيئاً.

أفتح صندوق السيّارة، وإذا بي أجده مُمتلئاً بلفافات المناديل الورقية، لا أعرف إن كانت مناديلَ مستخدمةً، أم أنها لفافات قديمة لم يستخدمها أحد، هناك بقع حمراءُ في إحدى تلك اللّفافات، هل هي دماء؟

كان هناك قلم داخل الصندوق، ودفتر مذكرات، دوّنت عليه فقرات عدة، وبعض أغلفة الحلوى المُهمَلة.

- ما الذي تفعلينه؟

قالَ جاك، وهو يفتح باب السيّارة وكان على وشك الجلوس. وجهه شديد الحُمرة وكرات الثلج عالقة بشعرة وكتفيه.

- جاك! لقد أفزعتني، أين كنتِ طيلة تلك المدة، ولماذا تأخرت هكذا؟

- كنت أتخلص من المهملات.

دخل جاك إلى السيارة، وفتح صندوق السيارة، تأمله جيداً، ثم قام بإغلاقه مرة أخرى.

- لماذا لم تُلقِ بالمهملات في صندوق القمامة الذي كنت تقف أمامه مباشرةً يا جاك؟

- لم يكن صندوقَ قمامة، ما الذي كنتِ تبحثين عنه في درج السيارة؟

- لا شيء، لم أكن أبحث عن شيء، كنت أنتظرك فقط، ما الذي تعنيه بأنه لم يكن صندوق قمامة؟

- كان صندوقاً خاصًا بملح الطريق، بعد ذلك اكتشفت وجود صندوق قمامة في الخلف، قال جاك وهو يخلع نظّارتيه الطبّيّتين ويحاول مسحهما بطرف قميصه.

- عندما توجهت لإلقاء المهملات في سلّة القمامة، وجدتني أمشي، وأمشي دون توقف، وكأنّ شيئًا ما هناك في هذه الحقول الواسعة يجذبني إليه.

- لا أحبّ تلك المنطقة في الواقع، لا تعجبني أبداً، وأتساءل لماذا

تُوجد مدرسة هنا؟ في منطقة معزولة كهذه؟ من المفترض في تلك الحالة أن تكون هناك منازل وسكان، ولكن لا توجد منازل أو سكان. إذن مَن قد يذهب إلى تلك المدرسة؟

- هذه المدرسة قديمة للغاية، لذا تبدو في حالة مزرية، ولكن كل أولاد المزارعين حولنا يرسلون أطفالهم إلى تلك المدرسة.

- من المؤكد أن تتحدث عن وقائع حدثت في الماضي، ولا تمتُّ للحاضر بصلة.

- ما الذي تقصدينه؟

- ما أقصده أنه مما لا شك فيه أنه لا يوجد أي تلاميذ يذهبون إلى تلك المدرسة في الوقت الراهن، من الواضح للغاية أنها مدرسة مهجورة ولا يذهب إليها أحد.

- من الممكن أن تكون مُغلقة بسبب الإجازة، هل بدأت الدراسة بعدُ؟

- لا أعرف، أخبرتك فقط بما أشعر به حيال تلك المدرسة.

- لماذا يضعون إذن ملح الطريق في السلة، إذا كانت المدرسة لا تعمل؟

هذا صحيح ومنطقي، لا يمكنني أن أجادله.

- الجوّ رطب للغاية في تلك المنطقة، قال جاك، وهو يجفّف وجهه بقميصه.

- مع الأسف أنني رأيت شاحنة هنا في الخلف، وهذا يُثبت أن نظريّتك بأن المدرسة مهجورة ولا حياة فيها، مجرد هُراء.

- أين رأيت تلك الشاحنة؟

- خلف المدرسة، هناك عندما عثرت على صندوق القمامة، كان هناك شاحنة سوداء.

- حقاً؟

- أجل، شاحنة صَدِئة سوداء.

- عادم الدخان لتلك الشاحنة خير دليل على أنّ بها شخصا ما.

- أيّ شخص؟

- ربما عامل نظافة يقوم بتنظيف تلك المدرسة، يقوم بإزالة الفوضى التي أحدثها التلاميذ، يقوم بترتيب الفصول، يقوم بتنظيف الحمامات القذرة وغير ذلكَ من الأشياء.

- وربما لا يكون أحدهم، ربّما يكون أيّ شيء آخر.

بدا الغضب جليًا على وجه جاك، تشبّث برأيه وهو يصرخ في وجهي قائلاً:

- لا.. لا يمكن أن يكون شيئًا آخر، من المؤكّد أن شخصا ما كان في تلك السيارة، شخصا ما يعمل في تلك المدرسة القديمة.

- حسناً، يا جاك، قلت ذلكَ فقط لأنني لا أملكُ فكرة.

أشحت بوجهي بعيداً عن جاك، ونظرت من نافذة السيارة إلى الخارج، أفكّر في كم هو أمر صعب للغاية أن يقوم أحدهم بتنظيف بناء ضخم كتلك المدرسة وحده دون مساعدة أحد آخر، من المؤكد أن الأمر فوضويّ للغاية في الداخل.

- على أيّ حال، دعنا نمضي في طريقنا. لقد تأخرنا للغاية وعليك الذّهاب إلى العمل غداً.

وها هو رأسي يؤلمني من جديد.

- لِمَ تلك العجلة؟ نحن لم نصل حتى منتصفَ اللّيل؟

- ماذا؟

- نحن لم نتأخر، دعينا نستمتع بتلك الثلوج والأمطار قليلاً، دعينا ننتظر وقتا.

لم أعد أرغب في الجدال مع جاك، ليس لديّ طاقة لفعل ذلك، لن أتجادل معه الآن، أفكر الآن في قراري بالانفصال عنه.

أنظر من النافذة، وأنا أفكر كيف سأقوم بإنهاء كل شيء؟ وأضحك بصوتٍ عالٍ.

- ماذا؟ قال جاك.

- لا شيء، أنا فقط....

- أنتِ فقط ماذا؟

- لا شيء صدقيني، لقد تذكرت شيئًا مضحكًا حدث في العمل.

هذا كلّ ما في الأمر.

- حقًّا؟ يسألني جاك كأنّه لا يصدقني.

- ما رأيك في منزلنا؟ وما رأيك في والديّ؟

هل يسألني الآن؟ بعد مرور كل هذا الوقت؟

أجيبه مُتَردّدة:

من الممتع أن أرى أين نشأت، سبق أن قلت لك ذلك.

- هل كنتِ تتخيلين منزلي كذلك؟

- في الحقيقة، لم أذهب إلى زيارة الريف من قبلُ، ليس لديّ خبرة ولم أرَ أيضا منازلَ ريفية من قبلُ. بصراحة لا أعرف.

- هل فاجأكِ ما شاهدته؟

تقلّبت في مقعدي، يبدو سؤال جاك غريباً وخارجاً عن المألوف.

- لماذا تشعر بأن ما رأيته فاجأني؟ لماذا؟

- أشعر بالفضول الشّديد فقط لأعرف رأيك في المكان الذي نشأت فيه.

- أحببت والديْك، من اللّطيف للغاية أنهما قاما بدعوتي للعشاء، كذلك كان والدك يُصِرّ على أن نمكث معهما.

- حقًّا؟

- أجل، وقال لي إنّه سيجلب لي فنجانًا من القهوة.

- هل تعتقدين أنهما سعيدان؟

- أهلك؟

- أجل، طوال الفترة الماضية، وأنا أتساءل إن كانا يشعران بالسعادة، ولكن اليوم يبدوان قلقين ومرهقين، لذا أشعر بالقلق حيالهما.

- يبدوان في حالة جيّدة، رغم أن والدتك يبدو عليها أنها تمرّ بوقتٍ عصيب، ولكن يبدو والدك داعما لها.

أتساءل بيني وبين نفسي، إن كان والداه سعيدين حقًّا؟ على أية حال، هما لم يبدوا تعيسين ولكن ما هي السعادة؟ كيف يعرف الإنسان أنّه سعيدٌ فعلاً؟

- أنا سعيد للغاية بقدومك إلى منزلي.

- أنا أيضاً.

- أنا سعيد حقًّا، طالما انتظرت أن تأتي لزيارة المكان الذي نشأت فيه.

قَبّلني جاك بنعومة، ثم همس في أذني:

- ستيف..

- ماذا؟

لم يرد عليّ، واصل تقبيلي، ابتعدت عنه فجأة، وقلت له:

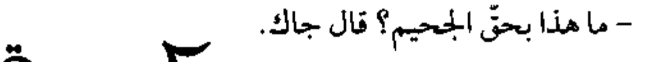
ما الذي قلته؟

- لا شيء.

هل ناداني جاك لتوّه بِ"ستيف"؟ هل فعل ذلك؟

قبّلني جاك مرة أخرى، قُبلة عميقة وطويلة، وفجأة هَبّ جاك يصيح في غضبٍ عارم.

- ما هذا بحقّ الجحيم؟ قال جاك.



- ماذا؟ ما خطبك يا جاك؟

- اللعنة، هناك شخص ما يُراقبنا.

- ماذا؟

- لا أريد أن أخيفك، ولكن هناك شخصٌ ما يراقبنا، لقد رأيته للتوّ.

- جاك؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- لقد كان يحدّق فينا.

أشعر بألم مفاجئ في معدتي.

- عندما نظرتُ إلى النافذة عندما كنت أُقبّلكِ، كان هناك رجل يُراقبنا.

- رجل؟

- أجل، كان هناك رجل يقف بالقرب من نافذة السيارة ويحدق

فينا فقط.

- أنا خائفة للغاية يا جاك، أرجوك قُدِ السّيّارةَ، ودعنا نغادر هذا المكانَ بسرعة، لماذا كان ينظر إلينا؟

- لا أعرف، ثمّة خطب ما.

بدا جاك مضطرباً ومتوتّراً للغاية.

حاولت أن أمدّ رقبتي قليلاً، وأنظر من نافذة السّيّارة.

- هل أنت متأكّد أنّك رأيت أحدهم؟ بالنسبة إليّ لا أرى أحداً على الإطلاق.

أحاول ألاّ أحدث ضجّة فأجلس هادئةً في مكاني.

- قلت لك إنّي رأيت رجلاً كان يحدّق فينا ويستمتع بمشاهدتي وأنا أُقَبِّلك.

- اهدأ يا جاك أرجوك، من الممكن أن يكون عامل نظافة كما قلت، وعندما وجد سيّارة في هذا المكان المنعزل، أتى ليعرف ما الأمر.

- اهدأ؟ كيف يمكنني ذلك؟ ما حدث هراء، هذا الرجل مريض، كان يراقبنا.

- لا يهمّ يا جاك، دعنا نرحل بهدوء من فضلك.

- جاك، هل يمكننا أن نغادر هذا المكان أرجوك؟

- لن أذهب إلى أي مكان دون أن أُلَقِّن هذا المُنحرف درساً لن ينساه.

- لا يمكنني أن أتجاهل ما رأيته.

- انس ما رأيته يا جاك، دعنا نرحل من هنا أرجوك.

أحاول أن أمسك بيده، أحاول تهدئته، إلا أنه دفعني بعنف، لأول مرة في حياتي أرى جاك في هذه الحالة الغريبة واندفع إلى خارج السيارة.

- أرجوك، عُد إلى هنا يا جاك، أرجوك انظر إليّ لدقيقة.

- لن نرحل من هنا دون أن أتحدث معه.

أتأمل جاك، وهو يمشي في تلك الحقول الواسعة المخيفة، حتى يختفي تماماً عن ناظري.

لا أعرف لماذا تصرف جاك هكذا، لماذا بدا عليه كلّ هذا الانفعال؟

أنا واثقة من أنّ وجود هذا الرّجل منطقيّ، من المؤكد أنه عندما رأى سيارتنا، خرج ليرى إن كان هناك أحد ما، لأنّه يرى قليلًا من النّاس في تلك المنطقة المنعزلة، لا يستحقّ الأمر كلّ ما فعله جاك، لم يكن يجدر بي أن أتركه يذهب إلى هناك وحده، كان يجدر بي أن أذهب برفقته، لا أعرف إلى أين سيذهب؟ وما الذي يفكر في فعله؟

أحدق في اتجاه المدرسة المتهالكة، ها هي الثّلوج تتساقط بغزارة.

تُرى مَن يكون ذلك الشّخص الذي كان يراقبنا؟

تُرى هل كان حارسًا ليليًّا أو عامل نظافة فعلا، كما قال جاك؟ أم أنه كان شخصا آخر؟

كم هي مهنة عجيبة! أن تأتي إلى مكان كهذا في اللّيل لتقوم بتنظيفه بالكامل وحدك، لتقضي ليلة بعد ليلة في هذا السكون. ربما ذلك يستمتع الشخص بالعزلة .لا تشكل فارقاً بالنسبة إليه أن يكون هناك أناس حوله.

أنا أقدر تلك المهنة حقاً، لا يرجع سبب ذلك إلى ما يقومون به من أعمال الكنس والتّنظيف، ولكن يرجع ذلك إلى تقديسهم للعزلة، وطريقة تفاعلهم معها، هؤلاء عُمّال النّظافة، ليسوا مطالبين بأن يتعاملوا مع التلاميذ، ليسوا مطالبين بأن يتعاملوا مع أي أحد، هم ينغمسون فقط في تلك الوحدة، في تلك العزلة الطويلة.

كم أتمنى لو كان باستطاعتي أن أعمل وحدي، تماماً مثل هذا العامل، لو كان بإمكاني أن أنجز عملي على طريقتي الخاصة دون أن يتدخل أحد فيه، دون أن يعطيني أحدهم أوامر، ودون أن يميل أحدهم على مكتبي ليطرح عليّ بعض الأسئلة، وكم أتمنى لو أستطيع العيش وحدي كذلك، أعتقد أن الأمر حينها سيكون أكثر سهولة ومرونة وطبيعيّة من ذلك.

رغم أن العمل في مكان ضخم مهجور كتلك المدرسة القديمة، يُعدُّ أمراً مرعباً للغاية، تحديداً بعد منتصف الليل، أتأمل المدرسة،

سطحَها ونوافذَها المظلمة تماماً كما السيارة التي أجلس داخلها.

الكتاب الوحيد الذي أهداه إليّ جاك ذات مرة، كان عنوانه: الخاسر. أعطاه لي جاك وقال لي إنّه لكاتب ألماني لا أتذكر اسمه الآن، هذا الكاتب مات منذ فترة. كتب لي جاك داخل الكتاب: قصّة حزينة أخرى.

أسمع صوت قرقعة معدنيّة قادما من الخارج، التفتُّ إلى الجهة اليُمنى القادم منها هذا الصّوت، إلاّ أنني لا أجد شيئاً، أنتظر لدقيقة حتى أسمع الصوت مرة أخرى، ولكن عمّ السّكون بعد ذلك.

يتساقط الثّلج بغزارة في كل مكان، لا يمكنني رؤية الطّريق جيّداً، الظّلام دامس للغاية، والطّقس شديد البرودة. لقد أخذ جاك مفتاح السيّارة معه دون تفكير.

ها أنا أسمع صوت ضجّة مرة أخرى، قلبي يدقّ بسرعة، ألتفتُ وأحاول النّظر من النّافذة. إلا أنّني لا أرى شيئاً. لا أريد أن أنظر مرة أخرى. كم أتمنى أن ينتهي كل هذا. تُرى أين جاك؟ ما الذي يفعله الآن؟ ولماذا استغرق كلّ هذا الوقت؟

رغم أنني إنسانة تحبّ الوحدة، أستمتع بالأوقات التي أقضّيها بمفردي، إلاّ أنّني لا أرغب في أن أكون وحيدة الآن. لا أريد أن أكون هنا بمفردي في هذا المكان المُوحِش.

ها أنا أسمع صوتَ قرقعة قادمًا من الخارج، يبدو أن هذا

الصّوت قادما من المدرسة، لماذا وافقت من البداية أن آتي برفقة جاك إلى مكانٍ كهذا؟ لماذا ارتبطت بجاك أصلاً؟ لماذا لم أنهِ علاقتي به منذ وقت طويل؟

قال جاك بأنه عليه مواجهة ذلك الرّجل الغريب الذي كان يراقبنا، تُرى كيف ستكون تلك المواجهة؟

هل سيتحدّث معه؟ هل سيضربه؟

كان من المفترض أن أكون في منزلي في هذا الوقت، كان من المفترض أن أكون نائمة في فراشي، بعد أن أقرأ لبعض الوقت، ولكن ها هي الأمور تنقلب رأساً على عقب بسبب مرافقتي لجاك، الذي يتركني أتجمّد من البرد في تلك السيّارة الملعونة.

من الممكن أن يكون جاك غاضبًا بسبب شيء آخر، شيء لا أعلمه، كان يجدر بي اللّحاق به أو البحث عنه. من المؤكّد أنني لن أقضّي تلك الوقت هنا، مُحتَجَزَة داخل تلك السيّارة.

عليّ أن أنهض للبحث عن جاك، أفتح باب السيّارة وأنزل منها بسرعة. أتوجّه إلى تلك المدرسة الغامضة القديمة، وأنا أرتجف، أنظر إلى أعلى إلى السّماء، هناك الكثير من النّجوم، كنت أعتقد أنه بسبب تلك العاصفة، ستنتشر السّحب في السّماء، إلاّ أن النّجوم اللامعة في كلّ مكان.

حدّقت في إحدى نوافذ تلك المدرسة القديمة، لا أرى شيئاً على الإطلاق، سوى السّتائر الطّويلة المنتشرة في الدّاخل. يبدو المكان

كأنه مكتبة أو مكتب. هناك رفوف من الكتب هنا وهناك قمت بالنّقر على النّافذة الزّجاجية.

نظرت حولي. لم أجد أحداً، لاحظت وجود سلّة المهملات الخضراء، اقتربت منها وقمت بإزالة الغطاء، كان جاك مُحقًّا، كان الصّندوق ممتلئاً حتى آخره بملح الطريق.

أحاول أن أقتفي خُطى جاك، أمشي في اتّجاه صناديق القمامة التي ألقى بها جاك المهملات، تُرى أين هو؟

- جاك، أقولُ بصوتٍ عالٍ أقرب إلى الصّراخ في فضاء المكان.

- أين أنت يا جاك؟

هل ما يحدث الآن هو إشارة قوية حتى أقوم بإنهاء علاقتي بجاك نهائياً؟ لقد كنت سعيدة للغاية وأنا وحيدة. كنت أسعد من الآن بكثير. من الرائع أن تكون وحيداً، ولكن ما هذا التوتّر والقلق الذي أدخلت فيه نفسي الآن، فقط لأنني لم أنفصل عن جاك إلى الآن.

ألمح بابا قرب سلّة المهملات، من المؤكد أن جاك داخل تلك المدرسة الآن.

أمشي في اتّجاه هذا الباب، ثمة نوافذ في الجوار. أصعد إلى أعلى، وأحاول النّقر على النّافذة بأصابعي، كان جاك مُحِقًّا. أجل هناك شخص في الداخل.

رجل طويل للغاية، هناك شيء ما يتدلّى من ذراعه، الرّجل ثابت

في مكانهِ لا يتحرّك. تُرى لماذا لا يتحرّك هذا الرّجل؟

ما الذي يفعله؟

لا يمكنه رؤيتي، أنا بعيدة عنه للغاية.

هناك مكنسة أو ممسحة بيده، لا أعرف تحديداً ما هي، أشعر بالخوف الشّديد، أحاول أن أختفي بعيداً عنه، أضع يدي على فمي حتى لا أصدر صوتاً، حتى لا يسمع الرّجل صوت أنفاسي اللاّهثة.

أشعر كأني تحت الماء، جسدي خفيف للغاية، ليس بيدي حيلة، لا أعرف ما الذي عليّ فعله؟

أشعر بأنّ نبضات قلبي تكاد تقفز من موضعها، لماذا لا أسأله أين جاك؟

ما الذي فعلته له؟

ربما يساعدني ذلك الرّجل الغامض في أن أعرف مكانَه.

ولكن لماذا أنا على يقين بأنه يعرف جاك؟ لماذا أظنّ أنه فعل شيئا له؟

ربما لم يلتق به حتى.

أواصل مراقبة الرجل، ما زال يقف جامداً في مكانه بلا حراك، ينظر إلى هذه الأمر، آه يا يا الله، أريد أن أصرخ لكنّي لا أستطيع.

يبدو الرّجل نحيلًا للغاية، أكتافه مُتَدلّية، يرتدي سروالًا أزرقَ

قاتمًا، يبدو أن تلك الثّياب، هي ملابس العمل.

ما هذا الذي يرتديه في يديه؟ هل هي قفازات؟ قفازات مطاطيّة؟

يرتدي الرجل قفازات صفراء طويلة للغاية وقناعًا، آه لا ينبغي أن أواصل النظر إليه، أنا خائفة، خائفة للغاية.

يمسك الرجل بالمكنسة، ويتقدم إلى الأمام، يبدو أنه سيبدأ بتنظيف المكان، يتحرّك ببطء، وكأنه يرقص برفقة تلك المكنسة.

أسند رأسي إلى الحائط، مبتعدة قليلاً عن النّافذة، عندما نظرت مرة أخرى، لم أجد الرجل واقفاً. لا، إنّهُ هناك، مُمَدّدٌ على الأرض ومستلقٍ على وجهه!

ما هذا؟ هل هو يزحف؟

أجل، أجل إنّهُ يزحف من اليسار إلى اليمين!

يا إلهي! هذا مخيف للغاية.

لا، لا يمكن للحال أن يستمرّ على هذا المنوال، عليّ أن أذهب فوراً للبحث عن جاك، أدفع الباب وأدخل وأنا أنادي بأعلى صوتي:

«جاك، أين أنت يا جاك؟».

على يساري، هناك مكتب قديم، تنبعثُ منهُ رائحة كيميائيّة رهيبة. أثاثه مُتهالِك وقد عفا عليه الزّمن.

كانت تلك القاعة مملوءةً بالأدراج المدهونة باللّون الأزرق القاتم وجميعها مُقفَلَة. هناك عدّة أبواب، جميعها مُغلَقَة أيضاً.

هناك قاعة أخرى، مشيت إلى هناك، كان هناك باب مفتوح، اقتربت منه، وهتفت بصرخة مُدَوّية:

«جاك؟ جاك؟ هل أنت هنا؟».

لم يردّ عليّ أحد، فقط الصّمت يُخَيّم على المكان.

هناك غرفة أخرى، بابها مفتوح، هرعت إليها مُتَمنّيةً أن أجد جاك في الدّاخل، عند دخولي تلك الغرفة، أحسست بأن المكانَ مألوف كثيراً بالنسبة إليّ، شعرت بأنّني رأيته من قبلُ. هذا الدّلو الفضّيّ وكافّة تفاصيل الغرفة. أردت أن أنادي على جاك، ولكنّني لم أفعلها.

الغرفة صغيرة وقذرة، كان هناك تقويم مُعَلّق على الحائط.

في الخلف، إلى يسار الغرفة كان هناك منضدة خشبيّة دون كَراسٍ، بجوارها خزنة طويلة للغاية، تبدو كأنها تابوت. كان هناك عدد من الصور القديمة مُعَلّقَة على الحائط، كذلك هناك فنجان قهوة قذر وطبق فضّيّ قديم للغاية.

تأمّلت الصّور المُعَلّقة، كان هناك صور لرجل ذي وجه طويل مُمتَدّ مع امرأتهِ. لا أعرف إن كان زوجاً وزوجة أم أخًا وأختًا؟

لا أعرف، ربما هما والدا شخص ما؟ ما أعرفه أن تلك الصور قديمة للغاية، لماذا قد يعلّقها أحدهم هنا؟

وجهاهما جامدان، ملامحهما قاسية وخالية من التعابير.

هناك صور معدودة أخرى كانت لرجل آخر، يبدو من الصور أنه لم يكن يدري أن أحدهم يقوم بالتقاط صورة له، أو ربما يعرف، ولكنّه كان كارهاً لتلك الفكرة، تمّ اقتطاع الجزء العلويّ من رأسه في الصورة، وفي إحدى الصور كان هذا الرجل جالساً في مكتبه. من المرجّح أن يكون هذا المكتب، يغطّي وجهه بيده اليسرى، من المؤكّد أن هذا هو الرّجل الذي رآه جاك يُراقبنا، من المؤكّد أنه أيضاً هو الرّجل الذي رأيته للتوّ في القاعة.

أقترب أكثر من صورة الرجل، يبدو وجهه مألوفاً بالنسبة إليّ. ثمّة خطب ما بخصوص عينيْه، تبدو نظرته حزينة للغاية.

يتملّكني الخوف وتتزايد ضربات قلبي، وفجأة عندما أتأمل المكتب أجد قطعة من القماش ملفوفة في أحد أركان المكتب. ألتقطها على الفور، إنها قميص لطفل صغير، قميص مُنَقَّط مُزّقَ أحدُ أكمامه. ما هذا؟ لقد رأيت هذا القميص، معقول؟

هذا القميص كان قميصي وأنا طفلة! ما الذي أتى به إلى هنا؟ كيف حدث هذا؟ لا أصدق.

حينها وجدت كاميرا صغيرة موضوعة بالقرب من التلفاز، حينها صرخت في الفضاء:

مرحباً، هل هناك أحدٌ ما؟

قمت بالضّغط على زرّ تشغيلها، كان المشهد الذي ظهر على

الشّاشة لغرفة وجدران، وكان هناك صوت أقرب إلى أن يكون صوت دندنة، أو شيء من هذا القبيل، أو كأنه صوت أنفاس أحدهم، إنها تلك الغرفة التي أنا فيها الآن، تظهر الآن أرضيّة الغرفة على الشّاشة.

تَظهرُ على الشّاشة الآن مشاهدُ أخرى بخلاف تلك الغرفة. يبدو أن الشّخص الذي كان يقوم بالتّصوير، خرج من تلك الغرفة وتوجّه لتصوير الرّدهة في الخارج، أسمع صوت خطواته. توجّهَ الشّخص الذي يقوم بتصوير الفيديو إلى غرفة أكبرَ حجماً، تبدو مكتبة المدرسة غرفةً كبيرةَ الحجم، بها المزيد من رفوف الكتب، وهنا توقّف المصوّر عن الحركة، ظلّ هذا المشهد ثابتاً وهو يقوم بالتسجيل، هناك يد أو شيء ما ظهرت على الشاشة فجأة، وهي تحاول إزالة الستائر من الصورة وإزاحتها نحو اليسار، وفجأة ظهرت على الشّاشة صورة الشاحنة السوداء التي تنتظر في الخارج أمام المدرسة.

قامت الكاميرا فجأة بتقريب الصورة من تلك الشّاحنة التي تنتظر في الخارج، هناك أحد ما في الشّاحنة. بدا وجهه قريباً للغاية، يُشبه هذا الشّخص جاك إلى حدّ كبير، هل من الممكن أن يكون جاك؟

لا.. لا يمكن أن يكون.........

أنا خائفة للغاية، يجب أن أخرج من هذا المكان فوراً، لا أعرف مَن هو ذلك الشّخص؟ ولا أعرف أين جاك أو ما الذي حدث له؟

عليّ الهرب من هنا فوراً، لا يهمّ إن قضيت اللّيلة كلّها أحاول الهرب، لا يهمّ إن تجمّدت من البرودة وأنا أحاول الذّهاب بعيداً عن هذا المكان، من المؤكد أن هناك سياراتٍ على الطريق الرئيسي يمكنها أن تُقلّني، عليّ أن أتحدّث إلى شخصٍ ما.

ألتفت يميناً ويساراً ثم أمضي قدماً، أحاول أن أصل إلى هذا الطّريق الذي دخلت منه إلى هنا. ها أنا أجد الباب الذي قمت بفتحه، ودخلت إلى تلك الغرفة الغريبة، ولكن ما هذا؟ توجد أغلالٌ على الباب، ما هذا؟ مَن قام بهذا؟

من الواضح أن أحدهم انتظر دخولي ثم قام بإغلاق الباب وأنا في الداخل؟

آه يا ربي ما الذي عليّ فعلُه الآن؟

تُرى مَن فعل ذلك؟ من المؤكد أنه هذا الشّخص في الرّدهة هو مَن فعل ذلك، أنا لا أفهم تصرّفه، ولا أعرف ما الذي يمكنني فعلُه الآن.

أصرخ بكلّ ما أُوتيت من قوّة:

جاك؟ جاك؟ هل أنت هنا؟

ولكن لا يوجد إلا الصّمت.

أنظر من النافذة، لا تزال الشاحنة السوداء موجودة في الخارج، ولكن عندما نظرت إلى النّاحية الأخرى لأرى سيّارة جاك، لم أجدها!

ما هذا؟ كيف ذلك؟ كيف يرحل جاك من دوني؟ كيف بإمكانه فعل شيئاً كهذا؟

أذهب ناحية الباب الموصد بالأغلال وأصرخ:

مَن أنت؟ ماذا تريد مني؟

أجد ورقة عالقة في حلقات السّلاسل الموضوعة على الباب، أحاول التقاطَها وفتحَها ويداي ترتعشان دون توقّف، فإذا بي أجد سطرا واحدا مُدَوّنٌ فيه:

«هناك حوالي مليون جريمة عنف تُقترفُ في أمريكا سنوياً، ولكن ما الذي حدث في تلك المدرسة؟».

أسقطت الورقة أرضاً وهرعت بعيداً عن تلك الأغلال وعن هذا الباب. جسدي يرتجف بأكملهِ. يلفّني الرّعب والهلعُ. من المؤكد أن هذا الرجل ألحق الأذى بجاك، وها هو الآن يبحث عنّي أنا الأخرى.

ينبغي ألاّ أحدث ضجّة، ينبغي أن أكون أكثر هدوءًا، عليّ أن أختبئ.

أتساءل، هل يراني الآن؟

أهرع إلى الخلف دون إحداث جلبة، هناك باب في نهاية تلك الردهة، ليس أمامي إلاّ أن أصعد هذا الدّرج. حاولت أن أصعد بهدوء، كان هناك ظِلّ أحدهم، لا أعرف إن كان هذا الرّجل يتتبّعني، ما زالت تلك الرّائحة الكيميائيّة النّفّاذة تنتشر في المكان،

أشعر بأن رأسي يؤلمني.

أنا الآن أتعرّق أكثر، أخلع معطفي على الفور، هناك باب من ناحية اليمين، أصعد على السّلالم حتى أصل إلى الطّابق الثّالث.

أرى قاعة أخرى تملؤُها أدراج التّلاميذ الدراسيّة، وهناك نافورة مياه إلى جانبي من ناحية اليسار، أنا في غاية العطش، لذا انحنيت قليلاً وأخذت رشفة فقط.

تلك القاعة تشبه إلى حدّ كبير القاعة في الطّابق السّفلي، تلك القاعات وتلك المدرسة أشبه بمتاهة كبيرة، أشبه بفَخ.

أسمع صوت موسيقى خافتة قادمة من بعيد. إنها أغنية ريفيّة قديمة، أنا أعرف تلك الأغنية، اسمها: مرحباً يا جميلة، تلك الأغنية هي الأغنية الريفيّة نفسها التي كنت أنا وجاك نستمع لها داخل السيّارة طوال رحلتنا على الطريق.

هناك مقعد طويل بجواري، أبذل قصارى جهدي للاختباء خلفه، أركع على ركبتي وأزحف في اتجاهه. ما زالت تلك الأغنية الريفيّة مستمرة وكلما انتهت بدأت من جديد، لا أطيق أن أسمعها أكثر من ذلك، أحاول أضع أصابعي في أذنيّ، إلا أن صوتها مُرتفع للغاية، ها أنا أفقد السيطرة على نفسي، ها أنا أبدأ بالبكاء.

في السابق، قبل تلك الليلة، عندما كان يسألني أحدهم ما هو أكثر شيء مُفزع حدث لي؟ كنت أحكي لهم فوراً عن السّيّدة فيل.

لم يجد معظم النّاس الذي سردت لهم قصّتها مرعبة حقاً، بل وجدوها قصّة مُملّة. يمكنني القول إنّ قصّة السيّدة فييل ليست من نوع القصص التي تسبّب الهلع والتي قد تتسبّب في إيقاف قلبك عند استماعك لها، ولكنّها قصّة مُربِكَة. تشوّشُ رؤيتك ونظرتك للواقع وللأمور من حولك. في الواقع، أرى هذا النوع من القصص أكثر رعباً من الأخرى، أما النوع الآخر المتعلّقُ بالرعب التقليدي فهو لا يخيفني.

ربما ليست قصّة السيدة فييل مُخيفة بالنّسبة إلى الآخرين، لأنها تفتقر إلى الدراما، لأنها قصّة حقيقيّة من قلب الحياة.

لم أكن أرغب في أن أعيش مع السيدة فييل.

أوّل مرّة التقيت فيها السّيدة فييل كانت في مطبخنا، طالما كانت تلك السيدة تتّصل بأمّي على الدّوام، كانت تشتكي لها طيلة الوقت من مشاكلها الخاصّة، كانت أمي تستمع لها بإخلاص، لم تكن تحكي لها أيّ شيء خاص بها، رغم أن أمي كانت لها مشاكلها الخاصّة.

كانت تتصل بأمي طيلة الوقت، في بعض الأحيان، كنت أهرع لألتقط سمّاعة الهاتف، وعندما كنت أسمع صوتها، كان يتملّكني الهلع.

كانت هناك جبيرة على يدها اليمنى وضمّادة على رسغها وسوار حول ركبتها، وجهها قديم وملامحها حادّة. لديها شعر بنّيّ محمرّ

مُجَعّد.

كانت السيدة فيل تأتي لزيارتنا كثيراً، في كل مرة تزورنا فيها، تأخذ معها طبقًا من لحم الخنزير المقدّد، كانت تأكله على الدّوام، إلاّ أنها لم تطبخه بنفسها، بل كانت أمي مَن تطهيه وترسله إليها.

ذات مرة أتت السيدة فيل لزيارتنا، وأهدتنا كعك الشّوفان الذي قامت بصناعته وفي مقابل ذلك أعطتها أمي كعادتها طبق لحم الخنزير المقدّد.

في كلّ مرة أرى فيها السيدة فيل في منزلنا، لم تكن تتحدث إليّ، لم ترحّب بي يوماً، دائماً كانت تشيح بوجهها بعيدة عنّي إلّا أنّ أمي تركتنا وحدنا في إحدى المرّات، وحينها تملّكني الهلع، لم أكن أريد أن أجلس مع تلك المرأة غريبة الأطوار وحدنا، حينها تركت ما كانت تفعله، ونظرت إليّ فجأة، وهي تقول دون مقدّمات:

هل أنتِ فتاة صالحة؟ أم فتاة غير صالحة؟

لم يكن لديّ فكرة ما الذي تتحدّث عنه تلك المرأة، لم يتحدّث معي أحد من الكبار بتلك الطريقة من قبلُ وأنا طفلة.

- إذا كنتِ طفلة جيّدة، بإمكانك أن تأكلي هذا البسكويت، أما إذا كنتِ فتاة غير صالحة، عليكِ حينها القدوم للعيش معي في منزلي وأن تتركي منزلك هذا.

كنت مرعوبة للغاية، لم أستطع الردّ على سؤالها.

- عليكِ ألاّ تكوني خجولة هكذا.

كان صوتها حاداً، مُفزعاً ومُرتفعاً للغاية، لم تكن امرأة حنونًا أو رقيقة أو لطيفة، بدأت تلك المرأة المخيفة بالتحديق فيّ.

لم أكن أحبّ التحدّث إلى الغرباء، كنت أخشى ذلك كثيراً، وما زلتُ في الحقيقة لا أحبُّ التواصل مع الناس، لا أحبّ أن أنظر مباشرة إلى عيونهم في أثناء الحوار، لذا حينها خفضت رأسي قليلاً ونظرت إلى الأسفل، وأنا أقول:

فتاة صالحة، قلتها وتورّدت وجنتاي خجلاً حينها. في الحقيقة، لم أعرف بمَ أردّ عليها، ولكن سؤالها وطريقة كلامها أخافتني حتى الموت.

ابتسمت السيّدة فيل ابتسامة خبيثة، رأيتها لأوّل مرة، مدّت ذراعها إلى الأمام في وضعيّة الاسترخاء ثمّ سألتني هامسة:

وماذا عنّي؟ هل أنا امرأة صالحة؟ ما الذي أخبرتك أمك به عنّي؟

عادت أمي فجأة من المطبخ، وانقطع حديث السيّدة فيل معي، والتي لم تبدِ أيّ اهتمام أو إشارة إلى أننا كنا نتحدث. وأنها سألتني لتوّها سؤالاً، لكنها نهضت متّجهةً صوب أمي التي كانت تحمل طبقاً من اللحم المقدّد، وقامت بإعطائه لها.

في تلك الليلة، أصيبت أمّي بالتّسمّم، كنت أسمعها طوال اللّيلِ تتقيّأ وتصرخُ وتبكي. إلا أنه بعد أن أصبحت بخير، قالت لي أمي إنّها كانت تعاني من مشكلة في المعدة، إلا أنّي على يقين أن تلك المرأة

هي السّبب، تلك السيّدة المُخيفة فيبل هي مَن أهدت إلى أمي كعكات مسمومة، أعرف أن هذه هي الحقيقة.

لا يمكننا أبداً أن نعرف، ما الذي يفكر فيه الآخرون. لا يمكننا أبداً التخمين في ذلك، أو التنبّؤ به.

مهما طالت العلاقات بين النّاس، مهما كنت تظنّ أنك تعرف هذا الشّخص جيداً، وأنك تعرف ما يفكر فيه، أنت مخطئ بالكامل، لأنك لا تعرف أبداً ما يفكر فيه، لا تعرف أبداً حقيقة شعوره تجاهك، يمكنك تزييف أي فعل، أي سلوك، لكن لا يمكنك أبداً تزييف فكرة.

هل أنتِ صالحة أم غير صالحة؟

هذا السّؤال تحديداً الذي طرحته يوماً تلك المرأة العجوز المُخيفة هو ما يثير فزعي.

ما زلت أختبئُ خلف المقعد الطّويل. لا أعرف كم مضى من الوقت، وأنا على هذه الحالة، هل مضت دقيقة؟ هل مضت ساعة؟ هل مضى عام؟

لا أعرف حقاً، أشعر بأن أطرافي مُخَدَّرة بالكامل، لا يمكنني أن أتحرك، بسبب تلك الوضعيّة الجسديّة المُرهِقَة.

بدأت أشعر بأنني أفقد إحساسي بالوقت.

أرقد أسفل هذا المقعد، أستمع للأغنية الريفية ذاتها التي تتكرر عشرات المرات بعد أن تنتهي. آه، كم أكره تلك الأغنية، كم أكره

هذا الطريق الذي مشينا فيه طوال رحلتنا أنا وجاك، كم أكره تلك المنطقة.

عليّ أن أنهض من ذلك المكان، وأحاول الاختباء بعيداً عن هذا المكان، أنا واضحة للغاية هنا، كل شخص بإمكانه رؤيته، من المؤكد أنه لو كان جاك برفقتي الآن لقال لي الكلام نفسَه، ولكن رأسي يؤلمني للغاية وينبغي ألاّ أفكر في هذا الشّعور الآن. لو كان جاك برفقتي لطلب منّي ألا أفكّر في الألم أيضاً.

ذلك الموقف الذي أنا فيه الآن، قد تراه في الأفلام السّينمائيّة أو تقرأ عنه في الصّحف، إلا أنك رغم الرّعب الذي يُقذَف في قلبك حينها، تحاول أن تنساه أو تتجاهله. تقول لنفسك أنا بخير، هذا الموقف لم يحدث لي، حدث فقط لشخصٍ آخر، وهذا ما يهمّ.

لا تتخيّل أنك قد تقع يوما في المأزق نفسه، وتجد نفسك عالقاً في مكانٍ مهجورٍ ولا تعرف ما الذي يمكنك فعله.

ما زلت أزحف أرضاً. أحاول أن أتجاهل مخاوفي، أحاول البحث عن مخرج للهرب.

إلا أن كل الأبواب مغلقة، وكل القاعات هنا تشبه بعضها بعضا، وكأنها تكرّر نفسها، كأني في متاهة لا يمكنني الخروج منها.

وفجأة ألمح لافتة مكتوبٌ عليها «جناح العلوم» فإذا بي أتوجّه إليها، بابها مدهون بالأزرق السّماويّ وتبدو مختلفة قليلاً عن باقي الغرف. هل دخلت هذا المكان من قبلُ؟

هناك إعلان عن حفلة رقص، مُعلّقة على أحد الجدران، هذه أول علامة على وجود طلاب في هذه المدرسة فعلا.

كُتب على اللاّفتة:

حفلة راقصة طوال اللّيل، سعر التذكرة 10 دولارات، ما الذي تنتظره؟ احجز فوراً.

أعتقد أنني أسمع صوتَ خطوات أقدام قادمًا من مكانٍ ما.

وكأني تحت تأثير المخدّر، لا يمكنني الحركة، ماذا لو كان هذا هو جاك؟ ماذا لو كان مُحَاصرًا مثلي في إحدى الغرف. أردت أن أركض وأصرخ. لو كان هذا هو جاك الذي أسمع خطواته، فهذا يعني أني لست بمفردي، هذا يعني أني آمنة.

أصعد إلى الأعلى، أحاول أن أتمالك قواي، من المؤكد أنه جاك، من المؤكد أنه يبحث عني، لكنني أشعر بالتعب الشديد، أشعر بأني أرغب في أن أتقيّأ، استمرّ في الصّعود، حتى أجد قاعة أخرى خاصّة بالفنون، تبدو تلك القاعة مختلفة قليلاً، باب غير مُوصَد، شعرت براحة كبيرة عندما عثرت على تلك الغرفة، بإمكاني الاختباء هنا وقتا، أعتقد أن المكان هنا آمن، هناك تليفون قديم في إحدى زوايا الغرفة، حاولت الاتّصال بالنّجدة، إلاّ أنه لا يعمل.

أفتح أحد الأدراج، فإذا بي أجد سكّينًا قديمًا للغاية، أسقطه أرضاً.

أتساءل كم من الوقت بإمكاني أن أقضّيه هنا في تلك الغرفة؟

كم من الوقت بإمكان المرء أن يقضّيه بمفرده دون أساسيّات الحياة والطعام والشراب؟

أفتح النافذة، وأحاول أن أتنفّس بعض الهواء المُنعِش، أتَلذّذ بالهواء البارد المُلاصِق لوجهي، ذلك الهواء الناعم يدغدغني برقّة.

طالما أحببت الفنون في المدرسة، إلاّ أنّني لم أكن جيّدة فيها، تفوّقت دراسياً، وحقّقت معدّلات مرتفعة، وهذا ليس بالأمر الجَلل. ما كان يُربكني حقاً هو تلك الحفلات والندوات التي كانت تقام في المدرسة، كل ما كنت أفكر فيه حينها هو أن أعود إلى المنزل.

لقد كنت أعاني كثيراً عندما كنت طفلة صغيرة، لكن بعد أن نضجت، باتت الأمور تتحسن بشكل واضح. أخبرني كلّ الناس حولي بذلك. قالوا لي بأنّني أصبحت أفضل. ولكن هل من العادل أن يكون مصيري هنا في تلك المدرسة المعزولة بعد أن أصبحت شخصاً أفضلَ؟

أعتقد بعد كلّ ما حدث، أن جاك ليس في حاجة إليّ بعدَ الآن، وأنا أيضاً لست في حاجة إليه، يمكن لكليْنا أن يمضي قُدُماً في طريقه، في حياته الخاصّة.

كذلك لم يكن والداه نوعي المُفَضّل من البشر، وأنا كذلك لم أشعر بأنها أحبّاني بصدق، وهذا المكان لا يعجبني أيضا، أعتقد أن كلّ شيء أظهر أننا لسنا ملائمين لبعضنا بعضا، وهذه ليست نهاية العالم، كل منّا سيبدأ حياته من جديد، سيكون هذا أفضل للجميع.

قدمي ترتطم بزجاجة بلاستيكية، أحاول أن ألتقطها، هناك أوراق ملفوفة داخلَها، أخرجها على الفور وأقرؤها:

أعرف ما تنوين فعله.

بَدت تلك الرّسالة كأنها إليّ، وكأنّ ذلك الشخص المريض يعرف أني سأدخل إلى هنا. إلى تلك الغرفة. لذا ترك بابها مفتوحاً حتى أجد تلك الرسالة وأقرأها.

هناك رسالة أخرى وجدتها على الأرض إلى جانب تلك الزجاجة، مُدَوَّنٌ فيها:

ها نحن وحدنا الآن أنا وأنتِ، هناك سؤال واحد فقط.

يتملّكني الرعب فجأة، كيف عرف ذلك الشّخص ما أفكر به؟ كيف لشخصٍ ما أن يعرف ما يدور في رأس شخص آخر؟

لا يمكنك أن تشعر بمقدار الرّعب الذي أشعر به الآن إلاّ إذا كنت مثلي، في موقفي نفسه، وحدك تماماً.

أواصل المشي، عليّ ألاّ أبقى هنا مدة أطولَ، لأن هذا الشّخص يعلم مكاني، ومن المؤكد أنه سيلحق بي.

كم كنت أتمنّى أن يكون ما أمر به الآن هو مجرد قصة رعب خياليّة، أو قصة أشباح تقليدية ولكن ما أنا فيه حقيقي، حقيقي للغاية. أكاد أن أجنُّ. هناك شخص مريض نفسياً أوقعني في فخّ تلك المدرسة المهجورة ويريدُ منّي شيئاً لا أعرفه. قد يكون الأمر أقل فزعاً بالنسبة إليّ. لو كانت مجرّد قصة أشباح، لكنّ هذا الأمر

برمّته خطئي، لأنه لم يكن يجدر بي القدوم إلى هنا.

أنا بمفردي، بمفردي تماماً، وليس هناك أحد لمساعدتي، أنا على يقين بأن هذا الشّخص ألحق الأذى بجاك، وها هو الآن يبحث عنّي.

أتعرّق أكثر وأقضم أظفاري بجنون، أمضغها، آكلها ولا أشعر بأني أفعل ذلك وكأني مخدّرة بالكامل. من المفترض أن أحاول إيجاد باب للحالات الطارئة حتى أخرج منه. من المؤكد أنه يوجد باب مخصّص لذلك عليّ إيجادُه والخروج من هنا بسرعة.

ها هي خصلات عديدة تتساقط من شعري، ربما هذا بسبب كلّ هذا التوتّر والقلق الذي ينتابني الآن.

أهرع إلى الخارج بحثاً عن باب الطوارئ المُطِلّ على النادي الرياضي، ها أنا أجده فعلا، أركض إلى هناك وعيناي تملؤهما الدموع ويداي ترتعشان. أمسك بيدي مقبض الباب، وعندما أتأمل يدي، أجد أحد أظفار يدي اليُمنى غير موجود.

هناك فَتحة في الأعلى من ناحية اليسار، أصطدم بشيء ما، عندما أتأمله، أجده حذاء، ما هذا؟ إنّهُ حذاء جاك!

أريد أن أصرخ، أريد أن أنادي عليه، ولكنّي لا أجرؤ على فعل ذلك، أغطّي فمي بيدي، حتى لا أصدر صوتاً.

ها أنا أصل الآن إلى حيث صنابير المياه، البخار يتصاعد هنا بكثافة جوارَ الحمامات، الهواء ساخن للغاية، لا يمكنني أن أرى

بوضوح، أهمس وسطَ هذا الضّباب:

جاك؟ هل أنت هنا؟

الرّطوبة تملأ المكان ورؤيتي ضبابيّة، لا أعرف كيف يمكنني الخروج من هذا المكان، تُرى هل جاك هنا؟ هل هو في هذا المكان فعلا؟

أم أن هذا الشّخص الغريب هو مَن كان هنا منذ قليل؟

لا أفهم شيئاً، لا أجد تفسيراً منطقياً لكلّ ما يحدث.

آه، لو كان بإمكاني فقط أن أركض بعيداً عن هذا المكان، بعيداً عن تلك المدرسة المُخيفة، لو كان بإمكاني أن أهرب بعيداً، حتى وإن متّ من فرط التّعب، حتى وإن انتهيت، ما يهمّ هو أن أهرب من تلك المنطقة القديمة المُرعبة الغامضة.

ربما سينتهي بي الحال هنا، في هذا المكان المُتهالِك البغيض، ربما سينتهي بي الأمر نائمة أسفل أحد تلك المكاتب المدرسية، أو في إحدى الزّوايا المُهمَلَة.

يبدو أن هناك شخصا ما هنا في أحد تلك الحمامات، أقترب كثيراً، وإذا بي أجد ملابسَ مُعَلّقة، فإذا بي أجدها ملابس جاك بعد أن التقطتها!

ما هذا؟ ما الذي أتى بثياب جاك إلى هنا؟ هل هو هنا؟

أغادر غرفة تغيير الملابس على الفور، وها هي تلك الأغنية

الريفيّة تعود من جديد، ها هي ترنّ في أذنيّ مرّة أخرى.

يتحدث الناس دائماً عن نقيض الحبّ أو نقيض الحقيقة، ولكن لماذا لم يتحدث أحد قَطُّ عن نقيض الخوف؟ تُرى ما هو نقيض الخوف؟

ما هو نقيض الهلع والرعب والندم؟

لا أعرف أبداً ما الذي أتى بنا إلى مكانٍ كهذا؟

ولماذا أنا؟

أحاول أن أفكّر بإيجابية، أحاول أن أفكّر في أشياء لطيفة، ولكنّي لا أستطيع، ها أنا أنفجر باكية مرّة أخرى.

هناك تصوّر بأن الخوف والرعب والهلع، جميعها مشاعر مؤقّتة لا تستمرّ طويلاً، لأنها تصدمك بقوّة وتُباغتك ولكنّها لا تبقى معك. هذا غير صحيح، أنا أؤمن بأن الخوف شعور عميق يستمرّ إلى الأبد، ويحتجزك خلف أسواره، لا يمكنك التّحايل عليه، أو تجاوزه، الخوف غير قابل للعلاج، إنّه أشبه بالطّفح الجلدي.

أحاول أن أركز تفكيري الآن حول شيء آخر، بخلاف هذا المكان، أفكّر في غرفتي، في كرسيّي الأزرق الذي أفتقده الآن كثيراً، كم أشعر بالحنين إلى غرفتي الحبيبة، تلك التي قضيت فيها معظم أوقاتي.

كانت في غرفتي رفوف من الكتب، آه كم أفتقد كتبي، كان هناك إبريق من الشاي، اشتريته في إحدى المناسبات، وكان هناك شمعة

على هيئة فيل، أهداها إليّ والداي وأنا طفلة، طالما انتظرت تلك المناسبة الخاصّة حتى أشعل شمعتي حينها، إلا أنها إلى الآن لم تأتِ بعدُ.

- كان يعمل في تلك المدرسة منذ ثلاثين عاماً، لم يرتكب أيّ جرائم في السّابق، ملفّه نظيف للغاية.

- حقاً؟ كيف هذا؟ كيف يقضّي أحدهم ثلاثين عاماً في وظيفة واحدة؟ هل كان يعمل طيلة تلك المدة في المدرسة نفسها حقّا؟

- كان يعيش في مكان قديم ومُتهالِك للغاية، أعتقد أنه كان يعيش في منزل والديه الريفي، مات والداه منذ فترة طويلة كما أخبرني الجيران، كل الأشخاص الذين تحدثت إليهم أكدوا لي أنه كان شخصا مؤدبا وهادئا للغاية. هو فقط، لم يكن يعرف كيف يتحدث إلى الناس. كانت لديه مشكلة في التواصل الاجتماعي، كان يقضي فترات استراحته داخلَ شاحنته في الخارج، كان يذهب ويجلس هناك حتى نهاية اليوم الدراسي.

- وما حقيقة هذا الكلام عن سَمعه؟

- لقد أجرى عمليّة زراعة قوقعة في الأذن، أصبح سَمعه أسوأ. كانت لدية حساسية من بعض الأطعمة، منها الألبان ومنتجاتها. كانت لديه طبيعة حسّاسة للغاية، لم يكن بإمكانه النّزول إلى الأسفل حيث غرفة السّخّان في القبْو، لذا إذا كان لديه عمل في

الأسفل، كان يطلب من أحدهم أن يقوم به.

- الأمر غريب للغاية.

- وكلّ هذه الكتب والمذكرات والملاحظات اليوميّة الخاصّة به، لقد رأيته يوماً في معمل العلوم بالمدرسة، بعد انتهاء اليوم الدراسيّ، كان واقفاً هناك، لا يفعل شيئاً. يبدو كأنه يراقب شيئًا ما. لم ينتبه إليّ لحظة دخولي إلى هناك، لم يكن يقوم بأعمال التّنظيف التي هي مهمّته هنا، لذا لم يكن لديّ أدنى فكرة ما الذي يفعله في معمل العلوم، لذا عندها سألته بلطف عمّا يفعله هنا، حينها اقترب مني كثيراً، ووضع إصبعه على فمه، وقال لي بصوتٍ هامس مُخيف: اخرسي.

- يا إلهي! هذا تصرّف عجيب للغاية!

- عندها قال لي أيضاً «لا أريد أن أستمع حتى لصوت الساعة» ثمّ مضى وتركني وحينها نسيت ذلك الأمر ولم أتحدث إلى أحد بشأنه حتى وقع ذلك الحادث.

- لو أنه كان ذكياً جداً كما تقول، أتساءل لماذا كان يقضّي وقتاً طويلاً يقوم بالكَنس، والتنظيف، لماذا لم يفعل شيئاً آخر؟

- على المرء أن يتفاعل مع زملائه في العمل وليس أن يمكث فقط في شاحنته خارجا.

- أما زال عامل نظافة؟ ما لا أفهمه هو كيف لشخص يقدّس الوحدة أن يعمل في وظيفة مُحاطاً بعدد كبير من النّاس، يبدو الأمر متناقضاً، أعتقد أنه نوع من تعذيب النفس، أليس كذلك؟

- أجل، أعتقد ذلك أيضاً.

أزحف في اتّجاه إحدى الغرف المفتوحة، لم أدخل الغرفة بعدُ، ما زلت في تلك الرّدهة الضيّقة على مشارف الدخول إلى غرفة الموسيقى، وها هو رأسي يؤلمني، وثمة قطرات من الدم تسقط من أنفي على الأرض، لكني ما زلت في طريقي إلى تلك الغرفة.

أدخل غرفة الموسيقى، هناك نوتات موسيقية وأدوات موضوعة بشكل عشوائيّ فوضوي.

لا أستطيع إخراج والديْ جاك من رأسي، أفكر فيهما طوال الوقت، الطريقة التي تحضنني بها والدة جاك تجعلني متوتّرة للغاية. تجعلني أشعر بأنّ هناك خطبا ما، كأن تلك المرأة لم تكن ترغب في أن تدعني أذهب، لا أفهم تصرفها، هل كانت خائفة من شيء ما؟ هل كانت تعلم بما سيحدث لي، أراهن على أنها كانت تعرف ذلك، نظراتها، تصرفاتها وحركاتها، كل شيء كان يوحي بذلك.

ربما لا، ربما والدا جاك عالقان هنا في هذا المكان مثلي الآن، ربما هما في حاجة إلى أن يساعدهما أحد.

عندما وضعت يدي خلف رأسي، وأنا أحاول الاسترخاء قليلاً، باغتتني بعض المشاعر حينها، حينها تحسست بيدي فإذا بي أجد منطقة صلعاء في منتصف شعري. لقد قمت بانتزاع المزيد من خصلات شعري دون قصد من شدة القلق والتوتّر.

والآن لقد حان دور قلبي، ها هو يدقّ بسرعة غريبة، ها هو يزعجني من جديد، تُرى لماذا تزعجني دقات قلبي؟

أعتقد أنّني أشعر بثقل شديد، هذا ما يؤلمني، هذا ما يجعلني أتمنى بصدق أن يتوقف نهائياً. أؤمن بأن خلاصنا هو الموت. عندما نموت ينتهي كل شيء، يتوقّف النّبض، يتوقف القلب عن إزعاجنا.

نحن نميل إلى إهمال الأشياء المهمّة في حياتنا حتى نتعرض لموقف كهذا، تكون بمثابة صَفعة على وجوهنا، لندرك أن تلك الأشياء لم تكن تستحقّ أن نهملها.

نحن مولعون بقيودنا البشريّة وباحتياجاتنا تلك، نحن بشر مولعون بهشاشتنا وضعفنا، لا يمكنك أبداً أن تكون بمفردك. هناك يقبع المزيد من الخوف من المجهول.

ما قيمة النهار؟ ما قيمة الليل؟ تكمن النّعمة دائماً في قدرة الإنسان على اتخاذ القرار السليم في الوقت المناسب، نحن نملك الخيار دائماً، كل شخص التقيناه في الحياة لديه خيار واحد، حتى وإن حاول أن يتجاهله، في نهاية المطاف، جميعنا أمامنا سؤال واحد، علينا الإجابة عليه.

ها نحن هنا عالقون مرة أخرى في تلك المدرسة، لا يمكننا صعود الدرج مرة أخرى، لقد أصابنا التعب والمَلل، لقد فعلناها مئات المرات والنتيجة واحدة، لقد فعلنا ما في وسعنا، لقد عانينا

وقتا طويلا.

نحن نمكث هنا، طالما مكثنا في هذا المكان.

بالطبع لا نشعر بالراحة هنا. نحن متعبون للغاية. متعبون إلى الأبد، أقول لنفسي:

سأقول لك شيئاً سوف يُربكك، أنا أعرفك جيداً، أعرف كيف تبدو، أعرف ما تفكر فيه، وأعرف شكل شعرك وقدميك ويديك، لم يكن يجدر بك أن تقضم أصابعك.

أعرف أنه لم يجدر بي ذلك، أعرف، نحن آسفون، آسفون للغاية.

أتذكر الآن اللوحة الفنية التي ما زالت في جيبي، اللوحة التي منحتني إيّاها والدة جاك، والتي هي عبارة عن صورة لجاك، والتي من المفترض أن تكون مفاجأة. سنقوم بتعليقها على الحائط هناك إلى جانب باقي الصور، قمنا بالتقاط الصورة من جيبنا ببطء، قمنا بفتحها، لا نريد أن ننظر إليها، لقد استغرقت والدته في رسمها ساعاتٍ أو ربما سنواتٍ، ها هو الوجه في تلك الصّورة، يُحدِّق فينا، ها نحن نشعر بضبابيّة الرؤية والتّشوّش، نحن مشتّتون للغاية الآن.

الوجه في الصورة هو وجهي، الرجل الذي في الصّورة هو أنا، جاك.

ها نحن نعود مرة أخرى إلى غرفة عامل النظافة، لم يكن مُرَحّبا بنا في تلك الغرفة، ها نحن نمرّ جوارَ غرفة الرقص، وها نحن نرى

عدة أبواب، لكننا لا نحاول فتح أي منها، ولماذا نحاول؟ ما الجدوى من ذلك؟

ونحن نمشي هنا منذ سنواتٍ طويلة؟

سنواتٍ طويلةً، ونحن نهيم على وجوهنا في تلك المدرسة، ندخل إلى الغرف، ننظر من النوافذ، ما الجديد إذن؟ لقد تعوّدنا على كل شيء هنا حتى قذارة هذا المكان تعوّدنا عليها.

غرفة عامل النّظافة هي غرفتنا نحن، لم يعد مهمًّا أن نفكر في الهرب إلى الخارج، في النهاية لا يمكننا إنكار مَن نكون؟

لا يمكننا إنكار هويّتنا.

في طريقنا للعبور بين الغرف نجد خصلاتٍ من شعرنا ودماءً على الأرض وأظفارا.

في السيارة، لم نرَ عامل النظافة. لقد رآه جاك فقط، وحينها دخل إلى هنا، نحن من تبعناه.

جاك يريد أن نكون معاً، في كيانٍ واحدٍ إلى الأبد.

أحذية جاك التي وجدناها، كانت لأنّه قام بتغيير حذائه فارتدى تلك الأحذية المطاطيّة، جاك هو ذلك الرجل، عامل النظافة، نحن هو، ها هي دموعنا تنهمر، الآن نفهم كل شيء.

والدا جاك ماتا منذ فترة طويلة، ليس لديهما وجود بعد، وأما قصة أخيه، أخيه المريض نفسياً التي حكى لنا عنه، لا نعتقد أنها

حقيقيّة، جاك ليس لديه أخٌ، جاك وحيد. لكن هذا الشّخص المُختَلّ عقلياً هو نفسه جاك، هو نفسه نحن.

يعلم جاك أننا في طريقنا لننهي كل شيء، لم نصرّح له بذلك، لكنه يعلم أننا نفكر في هذا منذ فترة طويلة، ليس بإمكان جاك أن يكون وحيداً بعد الآن، ليس بإمكانه مواجهة الوحدة.

في تلك الليلة، عندما التقينا في حفلة الجامعة، كانت الأغنيةُ نفسُها تتردد في أنحاء المكان، كان هو يتحدث مع رفاقه في الفريق، كان يبدو ظاهرياً هكذا، إلاّ أنه كان في الواقع مُنغمساً في أفكاره الخاصة.

وكانت هناك تلك الفتاة، هو، وهي، ونحن معاً في تلك الحفلة.

كانت تجلس جوارَه، كانت جميلة ومُتحدّثة لبقة. ضحكتْ كثيراً، أراد بيأس أن يقول لها مرحباً، ابتسمت له تلك الفتاة الجميلة وابتسم لها هو الآخر. كان لها عينان حنونتان. أجل كان هذا حقيقياً.

ولكنه بعد ذلك كتب رقمه على المنديل، وأراد أن يعطيها الرقم حتى تتصل به لاحقا، ولم يعطها المنديل.

كم تمنى أن يلتقيها لاحقاً، كم تمنى أن تتكرّر تلك الفرصة حتى يركض إليها، ويطلب منها أن يلتقيا ويتعارفا ولكن هذا لم يحدث. لم يحدث على الإطلاق، ولكنّه بدأ يفكر فيها بقوة، الأفكار حقيقيّة وقويّة للغاية، بدأ يفكر فيها وفينا.

هل كان سيتغير أي شيء لو كان أعطاها رقمه؟

هل كانت ستتصل به؟

ولو اتصلت به، هل كانت ستوافق على أن تذهب معه في رحلة على الطريق؟

هل كانا سيدخلان في علاقة معاً؟ علاقة ثنائية بدلاً من تلك العلاقة الأُحاديّة؟

هل لو كانت دخلت في علاقة معه، هل كانت ستوافق على الحضور معه إلى المكان الذي نشأ فيه؟

هل كانا سيتوقفان وقتا لتناول الحلوى على الطريق؟

هل أي من ذلك سيحدث فارقاً؟

ربما.. وربما لا.. هذا لا يهم الآن. هذا لم يحدث. ليست هي مَن تحمل هذا العبء الآن، ربما نسيته منذ تلك الليلة التي رأته فيها.

هي لا تعلم حتى بوجودنا على الإطلاق، نحن وحدنا مَن نحمل هذا العبء الثقيل.

لقد التقاها منذ فترة طويلة للغاية، منذ سنوات طويلة، هذا الأمر لا يتذكرهُ إلا نحن، وهو.

ها نحن نسمع خطواته بصوتٍ أعلى الآن، صوت أحذيته المطاطيّة قادمة من بعيد. ها هو يدخل إلى غرفتنا. هو يعلم أننا هنا وما من مكانٍ آخر يمكننا الذّهاب إليه. ها هو جاك يقف أمامنا

مستعداً لإنهاء كل شيء، متأهباً لأن يتخذ تلك الخطوة التي انتظرها طويلاً. إنّهُ يرتدي قناعًا بإمكاننا لَمسُه، بإمكاننا سماع صوت أنفاسه، ها أنا أضع يدي على كتفه لأقول له إنّنا نحن جميعاً معاً هنا. اقترب منّي جاك وهو يحاول ذبحي وهو يتمتم:

- عليّ إنهاء كلّ شيء الآن.

- أنا آسف بشأن ما مررت به، قلتُ له.

- حان دورك الآن حتى تقوم بمساعدتي في إنهاء الأمور.

قال جاك، وهو مُحِقّ. حان دوري الآن في مساعدتِهِ للتخلّص من معاناته، وها نحن نتعاون معاً من أجل ذبح جاك، من أجل ذبحنا نحن معاً، وها أنا أسقط أرضاً، وجِواري بحيرات من الدماء، أشعر بالألم للمرة الأولى، ثم لا أشعر بشيء على الإطلاق، يداي ترتعشان كالطّائر الذبيح، ها أنا وحيد مرة أخرى، ولكن في تلك المرّة لا أفكر في أي شيء، لأنّي قمت بالإجابة عن السؤال.

- هناك شيء آخر أرغب في أن أسأل بشأنه؟

- ما هو؟

- تلك المذكرات التي تركها جاك.

- لم تكن مذكرات بل هي أقرب إلى قصة.

- قصة؟

- أجل، كان هناك شخصيّات عديدة كتب عنها، لكني لا أعتقد أنه هو مَن كتبها، ربما كتبها شخص آخر، وربما هو، لا أعرف.

- هل تبرّر تلك الكتابات لماذا قام بإنهاء حياته؟

- لا أعرف، أنا مُرتبك فقط، مُرتبك للغاية بعد قراءة جزء منها.

- كيف ذلك؟ ما الذي تقصده؟

- انظر! حاول أن تقرأها، كأنها تبدو على لسان شخص آخر.

- هل كتب كل هذه الصّفحات؟

- أجل، عليك قراءتها كلّها، ولكن عليكِ أن تبدئي من النّهاية.



@soramnqraa
telegram

إيان ريد

أفكر في إنهاء الأمور

هذه الرّواية لغزٌ وعلامةٌ فارقةٌ في الأدب الرّوائي الذي كُتب في السنوات الأخيرة. يقدّمُ إيان ريد عملًا فارقًا، مطوّعًا في ذلك الفلسفة وعلم النّفس والتّشويق لبناء عالم روائيّ مختلفٍ ومتحرّرٍ من سطوة المكان والزّمان. فهوَ عملٌ ينطلقُ من الذّات ومن أحاسيس الإنسان ومن نظرتِه إلى الأشياء. ستصطدمُ في هذا العملِ بسؤالٍ مفصليّ تنبني عليه الرّواية وهو سؤال الوحدة الذي سيقودنا شيئًا فشيئًا إلى أسئلة الحبّ والحزن والفرح والقصائد الباردة التي تغطّيها الثّلوج والأحزان النّائمة التي تغطّيها ملامحنا. يمكنُ للقارئ أن يكملَ هذا العمل في جلسة واحدةٍ، لكنّ المؤكّد أنّ الحيرة التي ستورقُ في روحه بعد أن ينظر في آخر صفحاتِ الكتاب، لن تكتملَ مطلقًا. ستظلُّ في بحثٍ متواصلٍ عن إجابة لهذا الإنسان الذي يسعى منذُ ولادتِه ومنذُ خطوتِه الأولى إلى أن ينهي كلّ شيء، تمامًا كما حدثَ في هذا العمل..

النّاشر.

اكتسبَ هذا العملُ شهرة واسعة وجذبَ ملايين القرّاء حولَ العالم وتمّ تحويلهُ إلى شريطٍ سينمائيّ من قبل المخرج العالمي تشارلي كوفمان. ممّا أثار ضجّة ليسَ في الأوساط الأدبية فقط، بل في الوسط الثّقافي بشكلٍ عامّ. تُرجمَ العملُ إلى أكثر من عشرين لغة وإلى اليوم يصنّفُ ضمن أعلى الكتبِ مبيعًا في العالم.


ISBN 978-603-91498-9-7
9 786039 149897

WWW.PAGE-7.COM